سلسلة ثقافية شهرية تصدر عن دار المعارف

دكتورمحمد عمارة الكافية المكركة المكرك



إهـــداء 2005 معمد عثمان نجاتي القامرة

الحال المعارف نصدر عن دار المعارف

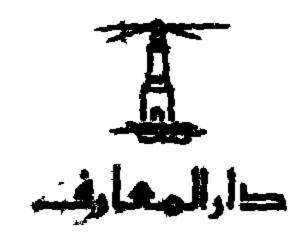
[787]

ربئيس التحرير: رجب البا

تصميم الفلاف: محمد أبو طالب

دكتور محمد عمارة

إسلامية المعرفة وماذانت ؟



إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا في شيء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هي ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التي نحياها .

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

لمهينا

إسلامية المعرفة.. أو التأصيل الإسلامي للمعرفة - في أدق.. وأبسط.. وأوفى التعريفات - هي:

الإيمان بوجود علاقة ما بين المعارف والعلوم التى يكتسبها الإنسان وبين الإسلام الذى يتدين به هذا الإنسان، الذى يكتسب هذه المعارف ويحصّل هذه العلوم.. وذلك انطلاقا من تأثيرات عقائد الدين وأحكام شريعته ومعايير التدين به على العادات والتقاليد والأعراف والمواريث والآداب والفنون التى صاغت وتصوغ «النموذج الثقافى» لهذا الإنسان الذى يخوض ميادين البحث والاكتساب للمعارف والعلوم..

فالمعتقد الدينى يلون نظرة الإنسان للحياة، وفلسفة رؤيته للكون، ويؤثر فى تحديد مقاصده من وراء العلاقات الاجتماعية، وينهض بدور رئيسى فى تحديد معايير الحلال والحرام، والمقبول والمرفوض، والولاء والبراء، والانتماء والمفارقة، وقسمات الذات وسمات الآخر. إلخ.. إلخ. ومن ثم يسهم هذا المعتقد الدينى فى تمايز الثقافة، التى تمثل المعارف والعلوم أبرز قطاعاتها وأخطر ميادينها.

وإذا كان التصنيف الموضوعي للمعارف والعلوم يميز - انطلاقا من موضوعات مباحث هذه المعارف والعلوم - بين:

- العلوم الشرعية .. من مثل علوم العقيدة وأصولها.. والفقه وأصوله..
 والقرآن وعلومه.. والحديث وعلومه.. إلخ..
- والعلوم الإنسانية والاجتماعية .. من مثل الاجتماع، والاقتصاد،
 والسياسة، والنفس، والفلسفة، والآداب والفنون.. إلخ..

● والعلوم الطبيعية -- الدقيقة والمحايدة -.. من مثل علــوم الفيزياء، والكيمياء، والفلك، وطبقات الأرض، والهندسة، والرياضيات.. إلخ..

فإن نوعية ونسبة العلاقة بين الدين وبين المعارف والعلوم تتمايز هي الأخرى فنسبة العلاقة – أى الأسلمة – بين الدين وبين العلوم الشرعية عميقة وعالية وشاملة، لأن الشرع والوحيى والدين – أى الوضع الإلهي المطلق – هو موضوع هذه العلوم – حتى لتسمى هذه العلوم الشرعية: علوما شرعية ومعارف دينية بإطلاق وتعميم، ودونما خلاف على هذه التسمية بين أحد من العلماء والباحثين.. حتى أن الاجتهاد البشرى فيها، والفكر الإنساني في ميادينها – أى المعرفة الإنسانية المكتسبة في علومها – محكومة بثوابتها وأحكامها وقواعدها ومبادئها، التي هي وضع علومها – محكومة بثوابتها وأحكامها وقواعدها ومبادئها، التي هي وضع في هذه المعارف والعلوم..

ويلى هذه المعارف والعلوم الشرعية، في العلاقة بالدين — ومن ثم في نسبة الأسلمة — معارف العلوم الإنسانية والاجتماعية، لأن موضوعات هذه العلوم هي النفس الإنسانية، التسى تتأثر تجاربها وخبراتها واختياراتها وفلسفاتها وأحلامها وأشواقها بعقائد الدين ومبادئه وقواعده وأحكامه وفلسفته في التشريع.. فمناهج وتجارب وحقائق ومقاصد هذه العلوم الإنسانية والاجتماعية موضوعها النفس الإنسانية — على المستوى الفردى والاجتماعي - ولأن هذه النفس الإنسانية قد اصطبغت وتأثرت وتلونت بعقائد المطلق الديني، ومعايير الحلل والحرام الشرعية،

وصاغتها العادات والتقاليد والأعراف والمواريث المصطبغة أو المتسأثرة بمطلقات الدين. وأيضا، لتنوع وتعقد عوالم النفس الإنسانية وفرادة واختلاف تجاربها الاجتماعية والروحية والفنية، كان تلون وتمسايز المعارف الإنسانية في ميادين هذه العلوم.. فمنهما بلغنت ضوابط موضوعيتها تظل مستعصية على الحياد الذي تتميز به حقائق وقوانين ومعارف العلوم المادية..

بل إن تأثيرات المعتقد الدينى تظل فاعلة حتى فى نفس الذيب مرقوا من الدين وألحدوا فيه.. تظل - كما يقول جمال الدين الأفغانى (١٣٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٩٨ م) - كأثر الجرح المندمل!.. فإذا هم مرقوا من روحانية الدين ومناسكه وشعائره تظل فيهم عصبيته.. وحتى إذا فارقهم الحب له، فسيظل الكره له شاغلا لنفوس هؤلاء الملحدين فيه!..

فالعروة وثقى، إلى حد كبير، بين المطلق الدينى وبين النسبى الإنساني في معارف العلوم الإنسانية والاجتماعية..

ويلى هذه العلوم الإنسانية والاجتماعية، في العلاقة بالمطلق الديني، حقائق ومعارف وقوانين العلوم الطبيعية - الدقيقة والمحايدة..

فغى هذا الحقل من العلوم والمعارف – التى تمثل المادة موضوعاتها يكون الحهاد كاملا، والموضوعية تامة فى الحقائق والمعارف والقوانين المستخلصة من التجارب فى موضوعات هذه العلوم.. فحقائق تجارب الطب والوراثة والفيزياء والكيمياء والفلك وطبقات الأرض.. إلخ.. إلخ.. موضوعية وثابتة ثبات موضوعاتها المادية.. وما التطور فيها والتراكم

المعرفى والتجديدات والإضافات إلا ثمرات لنمو القدرات الإنسانية على سبر أغوارها، وليست نابعة من سبر أغوارها، وليست نابعة من اختلاف أو تمايز ديانات وعقائد وفلسفات وثقافات القائمين على البحث والتجريب في ميادين هذه العلوم.. فلا أسلمة على الإطلاق في الحقائق والقوانين والمعارف المستخلصة من التجارب العلمية على مواد وموضوعات هذه العلوم الطبيعية.. وإنما ترد الأسلمة – فقط – في توظيف هذه الحقائق المحايدة، والقوانين الموضوعية.. فالتدين – على المستوى الفردى والاجتماعي – يضبط توظيف هذه الحقائق، بأخلاقيات الدين وقيمه، لتحقق مقاصده الشرعية، بينما الانفلات من الدين قد يوظفها فيما يخالف أحكام الدين.

فحقائق تجارب زراعة العنب - مثلا - لا تختلف باختلاف عقائد القائمين بزراعته.. لكن هذه العقائد هي التي تحدد اختيارات وتضبط توظيف هذه الحقائق العلمية المحايدة.. فالبعض يوظفها لاستثمار العنب كي يكون خمرا.. والبعض يقف بوظائفها - في زراعة العنب - عند الطيب الحلال..

وكذلك الحال مع حقائق وقوانين علوم الوراثة والجينات - وهى ثابتة - تقف العقائد عن حدود ضوابط وظائفها.. فالبعض يشوه بها خلق الله، ويخلط بها الأنساب.. بينما تضبط الأسلمة وظائفها وتطبيقاتها بمقاصد الشريعة الإلهية، وأخلاقيات الدين، وقيم الإيمان الديني..

فالأسلمة، في ميادين العلوم الطبيعية، لا دخل لها ولا تأثير في حقائق وقوانين هذه العلوم، وعلاقتها بهذه العلوم خاصة بفلسفة توظيف الحقائق والقوانين المحايدة ومقاصد هذا التوظيف، فقط لا غير..

فإسلامية المعرفة – أى العلاقة بين المطلق الدينى والوضع الإلهى الثابت – وبين المعارف الإنسانية – الكسبية والنسبية – قائمة دائما وأبدًا.. لكن نسبتها وميادينها هى التى تتفاوت وتختلف – فى الدرجة باختلاف حقول وموضوعات المعارف الإنسانية.. فهى عالية جدًا فى العلوم الشرعية.. وكبيرة فى العلوم الإنسانية والاجتماعية.. وواقفة فى العلوم العلوم الطبيعية عند فلسفات تطبيقات ووظائف حقائق وقوانين هذه العلوم..

Q Q Q

وإذا كانت هذه هى حقيقة إسلامية المعارف والعلوم.. وهى تبدو على هذا النحو من البداهة التهى لا يختلف فيها ولا عليها العقالاء.. فإن غرابة وشذوذ إنكار واستنكار هذه الحقيقة – حقيقة وجود علاقة ما بين المعتقد الدينى – وخاصة دين الإسلام المتميز بمنهاجه الحياتى الشامل – وبين المعرفة تتزايد أكثر وأكثر عندما نرى أن المنكريان لوجود علاقة للإسلام بالمعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية لا ينكرون وجود علاقات للفلسفات والأنساق والمرجعيات الفكرية غير الإسلامية بذات المعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية!!..

● فلا أحد ينكر وجود فلسفة مادية.. أى وجود علاقات وثمرات وتأثيرات للنزعة المادية والمنهج والمعتقد المادى في تميز نسق فلسفى – أى علم اجتماعى – بالصبغة الماديية.. فلم يكون الإنكار والاستنكار فقط للعلاقات والتأثيرات بين الإيمان والنزعة الإيمانية الإسلامية وبين الفلسفة، على النحو الذى يثمر معرفة فلسفية إسلامية مؤمنة؟!

- ولا أحد ينكر وجود فلسفة وضعية ، تقف بحقائق العلم عند الواقع وقوانينه ومعارفه.. فلم يكون الإنكار لتميز معرفي يحدثه العالم والمعارف إذا هو أضاف إلى آيات الكون آيات الوحي.. وضم إلى معارف الواقع المادي نبأ السماء عن المغيبات التي لا يستقل بإدراكها عقل الإنسان وتجاربه الحسية؟!..
- ولا أحد قد أنكر أو استنكر وجود «علم اجتماع ماركسى»، تلون بالفلسفة المادية الماركسية المادية الجدلية.. والمادية التاريخية وبالمقاصد الشيوعية في إقامة مجتمع البروليتاريا اللاطبقى..

فلم يكون الإنكار والاستنكار - فقط - لوجود «علم اجتماع إسلامي» كثمرة لعلاقة الإسلام بمناهج وحقائق هذا العلم في عقول ومجتمعات المتدينين بالإسلام؟!.. وكثمرة لإعمال سنن الله وقوانينه في الاجتماع البشرى؟!..

● بل لقد قبل الذين ينكرون ويستنكرون إسلامية المعرفة، وجود علم اجتماعي للاهوت التحرير^(۱) في أمريكا اللاتينية.. بل وحاول بعضهم استلهام وتوظيف هذا اللون من الفلسفة في العلوم الاجتماعية بواقعنا الإسلامي..

فلم يستنكر هذا البعض الصبغة الإسلامية فى علم الاجتماع الإسلامى؟!.. أم أن تأثير «لاهوت التحرير» فى علم اجتماع أمريكا اللاتينية حلال، وتأثير الإسلام فى علم الاجتماع عندنا حرام؟!..

⁽۱) لاهوت التحرير: تفسير اجتماعي للإنجيل، ينحاز إلى الفقراء والمستضعفين، تبلور في أوساط عدد من القساوسة الكاثوليك – ذوى النزعة اليسارية.. وربمسا الماركسية – في أمريكا اللاتينية.. ولقد اتخذت منه البابوية الكاثوليكية – في الفاتيكان – موقفا معاديا.

● ولا أحد ينكر ولا يستنكر ما قرره «ماكس فيبر» اعتب فلسفة البروتستانتية بالرأسمالية – فلسفة واقتصادا واجتماعا – بل لقد غدا هذا الذى قاله «ماكس فيبر» إحدى المسلمات عند الذين ينكرون ويستنكرون وجود علاقة بين الدين الإسلامى وبين وجود فلسفة واجتماع واقتصاد متميزة معارفها بالإسلام، ومصطبغة بفلسفة الإسلام المتميزة في علاقة المسلم – فردا ومجتمعا – بالثروات والأموال.. وذلك انطلاقا من نظرية الخلافة والاستخلاف الحاكمة للعلاقة بين المالك الحقيقي للثروة – وهو الله سيبحانه وتعالى – وبين الخليفة والنائب والوكيل – وهو الإنسان مالك المنفعة – في الثروات والأموال..

فلم يكون «حلال» الذى قرره «ماكس فيبر» رغم أنها تدع ما لقيصر لقيصر ولا تجعله لله - لم يكون «حلالها» هذا «حراما» على الإسلام - رغم منهاجه الحياتي الشامل ، وتقرير القرآن الكريم لفلسفة متميزة في علاقة الإنسان - فردا ومجتمعا - بالثروات والأموال ؟! .

000

إننا _ فى الحقيقة وواقع الأمر _ أمام تناقض فى مواقف هذا النفر لله المنكرين لإسلامية المعرفة - يبلغ درجة الغرابة والشذوذ.. ولا تفسير لله إلا الجهل بالإسلام - إذا حسنت النوايا - أو الكراهية لرؤية أية آثار للإسلام فى حياة المجتمعات الإسلامية، ومعارف العلوم الإنسانية والاجتماعية فى هذه المجتمعات..

⁽۱) عالم اجتماع ألماني.. من أهم مؤلفاته (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية) - سنة ١٩٠٥ م - (والمفاهيم الأساسية في علم الاجتماع) - سنة ١٩٢١ م.

فالليبراليون الرأسماليون - من أعداء إسلامية المعرفة - يقبلون بوجود «روح بروتستانتية» - يسمونها «الإصلاح الديني» - كى تقبلها جماهير أمتنا - لتصنع هذه الروح الرأسمالية، وتصبغ الليبرالية التى يريدون..

والماركسيون الماديون – من أعداء إسلامية المعرفة – يريدون الفلسفة المادية التي تفسر وتغير «البناء التحتي» – الاجتماعي والاقتصادي وما يرتبط به من بناء فوقي بورجوازي – في الفكر – لتستبدل به «بناء تحتيا» شيوعيا، و «بناء فوقيا» شموليا.

وعلى ما بين الليبراليين والماركسيين من خلاف يبلغ حد التناقض العدائى.. نراهم يجتمعون على الإنكار والاستنكار لإسلامية المعرفة الاجتماعية والاقتصادية في مجتمعات الإسلام، رغم إيمان كل فريق منهم بتأثير فلسفى وفكرى في علم الاجتماع الذي يدعو إليه كل فريق، ويريد إقامته في مجتمعات الإسلام..

فعلاقة البروتستانتية بالاجتماع الرأسمالى - عندهم - مقبولة.. وعلاقة المادية الجدلية والمادية التاريخية بالاجتماع الاشتراكى والشيوعى - عندهم - مقبولة.. بينما علاقة الإسلام بالاجتماع الإسلامى هى وحدها الحرام، عند هذا النفر من المثقفين..

000

وإذا كان «التغريب» هو الداء الذى صنع ويصنع هذا الشذوذ الغريب في موقف هذا النفر الذين ينكرون علاقة الإسلام بالمعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية.. فلقد يكون مفيدا في علاج هؤلاء المرضى –

الذين لا يستشهدون إلا بكل ما هو غربى.. ولا يحتجون إلا بما هو غربى.. ولا يسلمون إلا بما هـو غربى – قد يكون مفيدا فى علاج مرضهم هذا – الغربى الغربب! – أن نلجأ إلى «الصيدلية الغربية» لنأتى منها بعلاج لهذا المرض الذى بلغ بهم هـذا الحال الشاذ والعجيب..

- فالمستشرق الإيطالى «كارل نلينو» المسلمين إيجاد فلسفة شرقية»، ١٩٣٨م) قد كتب دراسة عن «محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية»، أثبت فيها أن للإسلام علاقة بالفلسفة الإسلامية، ميزت هذه الفلسفة تبعا لتميّز الإسلام عن الفلسفة اليونانية (١٠). أى أن هناك برأى هذا المستشرق إسلامية للمعرفة الفلسفية في حضارة الإسلام ومعارف المسلمين..
- والمستشرق الإنجليزى «ألفريد جيوم» Alfred Guillaume يؤكد على أن الوسطية الإسلامية، التى جعلت الإسلام يؤلف بين العقل والنقل، ويؤاخى بين الحكمة والشريعة، قد صبغت الفلسفة الإسلامية بهذه الصبغة المتميزة.. فتميزت المعرفة الفلسفية الإسلامية بسمة التدين، وامتازت بها عن الفلسفات الأخرى التى انحازت إلى العقلانية المادية المجردة، أو إلى المثالية الباطنية الخالصة.. فأصبح للإسلام كما يقول «جيوم» «فلسفة منطقية.. تدرس بوصفها من صميم العقيدة

 ⁽۱) ترجم هذه الدراسة ونشرها الدكتور عبد الرحمن بدوى، فى كتسسابه
 (التراث اليوناني فى الحضارة الإسلامية) ص ٢٤٥ – ٢٩٦. طبعة القاهرة سنة
 ١٩٦٥ م.

الدينية..» (١).. فلقد أثمر الإسلام معرفة إسلامية في هذا العلم الاجتماعي - الفلسفي - ..

● والمستشرق الفرنسي «ديفيد ســانتيلانا» David de Santillana (١٨٤٥ – ١٩٣١ م) – وهو حجبة في القانون الروماني وفي الفقيه الإسلامي - يؤكد على علاقة النزعة الدنيوية الغربية بالطابع النفعى الدنيوى للقانون الروماني.. وعلى علاقة الوسطية الإسلامية - الجامعة بين الدنيا والآخرة – بتميّز القانون وفقه المعاملات الإسلامي، عندما ارتبطت فيه كل مسألة قانونية بالضمير الديني والمقصد الأخلاقي.. أي أن هناك تأثيرا للإسلام في المعرفة القانونية - وهبي علم اجتماعي -وإسلامية للمعرفة القانونية في حضارة الإسلام.. يؤكد «سانتيلانا» على هذه الحقيقة المعرفية التى مايزت بين القانون الإسلامي وبين القانون الروماني.. فيقول «إن معنى الفقه والقانون بالنسبة إلينا وإلى الأسلاف – (في الحضارة الغربية) – : مجموعـة من القوانـين السـائدة التي أقرها الشعب، إما رأسا أو عن طريق ممثليه. وسلطانه مستمد من الإرادة والإدراك وأخلاق البشر وعاداتهم.. إلا أن التفسير الإسلامي للقانون هو خلاف ذلك.. فالخضوع للقانون الإسلامي هو واجب اجتماعي وفرض ديني في الوقت نفسه، ومن ينتهك حرمته لا يأثم تجاه النظام الاجتماعي فقط، بل يقترف خطيئة دينية أيضا، فالنظام القضائي

 ⁽١) جيوم (الفلسفة وعلم الكلام) بحث مترجم ومنشور بكتاب (تراث الإسلام) ص
 ٣٧٩. ترجمة جرجس فتح الله.. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م.

والدين، والقانون والأخلاق، هما شكلان لا ثالث لهما لتلك الإرادة التى يستمد منها المجتمع الإسلامى وجوده وتعاليمه. فكل مسألة قانونية إنسا هى مسألة ضمير، والصبغة الأخلاقية تسود القانون لتوحد بين القواعد القانونية والتعاليم الأخلاقية توحيدا تاما، والأخلاق والآداب، فى كل مسألة، ترسم حدود القانون. فالشريعة الإسلامية شريعة دينية، تغاير أفكارنا أصلا..»(١).

فالدين الإسلامي وشريعته الإلهية قد صبغت القانون الإسلامي بصبغة ميزته عن القانون الروماني.. أى أننا بإزاء إسلامية للمعرفة في هذا العلم الاجتماعي—علم القانون وفقه المعاملات—يؤكد عليها هذا المستشرق الكبير.

فهل تجدى هذه الشهادات الغربية - بحسبانها «روشتات» من «الصيدلية الغربية» لعلاج ذلك المرض التغريبي الشاذ، الذي جعل نفرا من مثقفينا يقبلون بوجود العلاقات بين مختلف الفلسفات والمرجعيات الفكرية - وبعضها ديانات - وبين المعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية. اللهم إلا إذا كان الأمر بإزاء الإسلام، فإنهم ينكرون ويستنكرون أية علاقة له بالمعارف والعلوم؟!.

لقد سبق لفیلسوفنا ابن سینا (۳۷۰ – ۲۸۰ هـ – ۹۸۰ – ۱۰۳۷ م) عندما أراد معالجة ذات المرض الفكرى، عند نفر من معاصریه الذین لا یؤمنون إلا بما هو یونانی – وکان یشمیهم «العوام»! – أن سلك

⁽۱) سانتيلانا (القانون والمجتمع) بحث مترجم ومنشور بكتباب (تراث الإسلام) ص ٤١١، ٤٣٨، ٤٢١ لمرجع سابق.

نفس الطريق في علاج ذات المرض.. مرض «العاميين من المتفلسفة المشغوفين بالمشائين أن الله لم يهد إلا إياهم، ولم ينل رحمت سواهم»، فعرض نصوص الفلسفة المشائية اليونانية، ليقنع بها هؤلاء «العوام».. ثم نبه على الفلسفة الإسلامية الحقة – المصطبغة والمتميزة بالإسلام – فلسفة المشرقيين – أو الحكمة المشرقية – المتميزة عن الحكمة الغربية – فلسفة اليونان – (")..

فهل يفيد هذا المنهاج في العلاج؟!..

أم يظل هؤلاء المرضى بالاستلاب التغريبى على جمودهم الفكرى، يتحدثون عن علم اجتماع ماركسى.. أو مسيحى.. أو وضعى.. أو حتى لاهوتى تحريرى.. إلخ.. مستثنين - فقط - علاقة الإسلام وتأثيراته في المعارف الإنسانية؟!..

لقد كتب واحد من هؤلاء - منذ سنوات - مقالا ناريا يستنكر فيه استخدام كلمة «إسلامي» في تسمية أحد المستشفيات.. فلما لفت نظره إلى أن بالقاهرة - منذ ١٩٢٧م - مستشفى - كبيرا وشهيرا - اسمه «المستشفى القبطي» - ولم يهاجم أحد تسميته هذه عبر هذه العقود من السنين - صمت هذا الكاتب.. لكن دون أن يقلع عن الهجوم على

⁽۱) المشاؤون هم أتباع مدرسة أرسطو (۳۸٤ – ۳۲۲ ق.م) سموا بذلك لأن التعليم في مدرسته الفلسفية – «اللو قيوم» – كان يتم أثناء السير.. المشى.. ولقد تأسست هذه المدرسة في أثينا سنة ۳۳۵ ق.م واستمرت نحو ألف عام.

 ⁽۲) نلينو (محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية) ص ۱۷۸ - ۲۸۲. بحث منشور
 بكتاب (التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية). مرجع سابق.

أى إطلاق لكلمة «الإسلامي» على أية مؤسسة من المؤسسات، أو علم من العلوم الإنسانية.. الأمر الذى فضح ويفضح موضوعية هذا النفر من المثقفين والكتاب!..

$\Diamond \Diamond \Diamond$

هذه هي «إسلامية المعرفة» - أو التأصيل الإسلامي للمعرفة - .. والتي تعني - في أدق وأبسط العبارات - :

العلاقة القائمة بين الدين الإسلامي - عندما يتدين به الإنسان - وبين المعارف والعلوم التي يبدعها هذا الإنسان المتدين بالإسلام..

فالعقيدة – أية عقيدة – وخاصة إذا كانت الإسلام الشامل لكامل منهاج هذه الحياة وما بعد هذه الحياة – إنما تمثل «المنظار» الذى يرى المعتقد بها الكون والاجتماع من خلال عدساته.. فتقوم علاقة ما بين هذه العقيدة وبين المعارف والعلوم التي يبدعها هذا الإنسان.

وهذه العلاقة – إسلامية المعرفة – لا تنفى «النسبية» عن المعرفة الإنسانية الإنسانية.. ولكنها تنبه وتكشف وتبرز علاقة هذه المعرفة الإنسانية النسبية بالمرجعية الدينية المطلقة والمحيطة والكلية.. فهى تنفى النسبية المطلقة عن المعرفة الإنسانية، في ذات الوقت الذي لا تزعم فيه لهذه المعرفة الإنسانية صفات الإطلاق.. فحتى معارف الإنسان الدينية هي نسبية، وجزء من المطلق الديني.. والعلم الإلهى هو المتفرد بالعموم والشمول والإحاطة والإطلاق..

وهكذا تبلغ إسلامية المعرفة مبلغ الحقيقة، وتصل في البداهة إلى درجة المعلوم من الفطرة السوية بالضرورة.. أي التي لا يختلف فيها ولا عليها العقلاء.. مطلق العقلاء..

000

لكن خطر القضية.. وكم اللبس المحيط بها – فى دوائر الخصوم والأنصار! – يستدعى ما هو أكثر من التمهيد.. يحتاج إلى تفصيل للدعوة، يتضمن ضبط مصطلحاتها – .. وإلى إقامة للحجة على صدق مقولاتها.. وإلى نفى للشبهات المحيطة بها.. وإلى تبيان مكانة هذه القضية – إسلامية المعرفة – فى مشروعنا الحضارى، المرشح ليكون دليل عمل ينير لأمتنا طريق النهوض والإقلاع الحضارى، والانعتاق من ربقة التخلف الموروث والاستلاب الحضارى الوافد.. وقبل كل ذلك: جذور القضية فى الموروث الحضارى لأمة الإسلام..

وللوفاء بهذه المهام.. ننتقل من سطور هذا التمهيد إلى صفحات فصول هذا الكتاب.

دكتور معمد عمارة

(الفصل (الأول شعار جديد.. لمضمون قديم

« إسلامية المعرفة »

هذا شعار جدید عرفته حیاتنا الفکریة والثقافیة منذ سنوات .. وکأی شعار جدید فلقد قوبل بردود فعل متباینة ومتفاوت ، تراوحت ما بین التأیید .. والحماس ، غیر الواعی ، له .. أو ضده!..

وإذا كان هذا الشعار جديدا ، وإذا كانت جدته قد كانت سببا فى الكثير من علامات الاستفهام التى قامت من حوله .. فإن من الضرورى ، جلاءً لحقيقته ، أن نبدأ هذا الحديث بالإشارة إلى حقيقتين :

الأولى: أن جدة هذا الشعار - «إسلامية المعرفة » - لا تعنى جدة المضمون الذى يعبر عنه ، ولا جدة القضية التى يطرحها .. فإسلامية المعرفة - كما سيقيم الدليل عليها هذا الحديث - هى مهمة فكرية ، ورسالة ثقافية عرفتها حضارتنا منذ ظهور الإسلام .. وأول كتاب عرض لهذه القضية - في تاريخنا الحضاري-هو القرآن الكريم : فشعار «إسلامية المعرفة » يوحى بالموقف القائل بقيام علاقة ما بين الإسلام وبين المعارف الإنسانية .. وهذه هى المهمة الفكرية والرسالة الثقافية التى عرفتها حضارتنا الإسلامية منذ ميلادها وتبلورها، والتى قدمتها بديلا إسلاميًا في المعرفة للنموذج المادى في المعرفة ، الذى كان معروفا وسائدا إسلاميًا في المعرفة للنموذج المادى في المعرفة ، الذى كان معروفا وسائدا في حضارات أخرى ، غير الحضارة الإسلامية ، قبل وعند ظهور الإسلام.

ولذلك ، فإننا نأمل أن تكون الإشارات التي يقدمها هذا الفصل لتاريخ مضمون هذا الشعار – علاقة الإسلام بالمعارف الإنسانية – في تاريخنا الحضاري والفكري والثقافي ، شاهدا على أن جدة الشعار لا تعنى أن مضمونه « بدعة فكرية » ، لأنه في حقيقته مُسِلَّمة من المسلمات الفكرية الراسخة في علوم حضارة الإسلام ..

والثانية: من الحقائق، التى نشير إليها الآن، هى أن جدة هذا الشعار قد أثارت - وهذا طبيعى أحيانا - ردود أفعال متباينة تجاهه:

● فهناك – غير الذين ينكرونه ويستنكرونه ، لأنهم ينكرون ويستنكرون – بوعى – أن تكون للإسلام علاقة – أية علاقة – بأى من معارف وعلوم المدنية والحضارة والحياة – هناك – غير هؤلاء – الذين نفهم موقفهم ولابد أن نحاورهم – هناك الذين ينكرونه لجهلهم بحقيقة مراميه ومقاصده .. وهناك الذين يظلمون هذا الشعار – بعندما يرفعونه ، ويستخدمونه ، مع جهلهم بحقيقة ما يعنيه !.. فيسيئون إليه أشد من إساءة العقلاء من أعدائه ، لأنهم يقدمون « الحجج » السلبية التي يستفيد منها هؤلاء الأعداء..

فى مواجهة هذا الشعار الذى يطرح قضية : قيام علاقة بين الإسلام وبين المعارف الإنسانية .. وطبيعة ومدى هذه العلاقة.. هناك مواقف، وردود أفعال ..

● فمن الناس من يظن أن «إسلامية المعرفة » هى «كهانة - كنسية » جديدة ، فى دوائر المعرفة .. تريد أن تجعل من علوم ومعارف الحياة ، المدنية والحضارية ، « دينا خالصا ! » فتقدسها قدسية

الدين، وتثبتها ثبات الدين – فهى حجر جديد على الاجتهاد فى علوم الحياة ، وتجميد لها وجمود يحول بينها وبين التطور والتغيير .. وبهذا الفهم للقضية ، نراهم يناصبونها العداء ، مخافة أن تعيد ، من جديد ، السيرة الأولى للكنيسة الأوربية مع العلم والعلماء ..

- ومن الناس من يحسب أن إسلامية المعرفة إنما تعنى فصالا تاما وكاملا مع العلوم والمعارف الإنسانية الاجتماعية منها والطبيعية التى أبدعها العقل الإنساني في الحضارات غير الإسلامية .. فهذه معرفة إسلامية .. وتلك كافرة .. والفصال كامل والخصام تام بين الكفر والإسلام!.. فهم يخشون أن يفضى أمر إسلامية المعرفة بنا إلى قطيعة مع ثمرات العقل غير المسلم في المعارف والعلوم ، فنزداد عزلة ونوغل في الانغلاق ، اللذين يفضيان بنا إلى الذبول والانقراض!..
- ومن الناس من توهم أن إسلامية المعرفة لا تعنى ولا تكلف ولا تقتضى أكثر من إضافة بعض من آيات القرآن الكريم ومن الأحاديث النبوية الشريفة إلى مناهج وحقائق وقوانين العلوم التى أبدعتها مدارس الفكر الغربى الإنسانية منها والطبيعية فكما نستعين باكتشافات العلم الغربى على اكتشاف الاعجاز العلمى في آيات القرآن الكريم ، نستطيع أن نستعين بآيات القرآن الكريم لإضفاء « الإسلامية » على هذا العلم الغربى .. وكفى الله عقولهم « شر » الاجتهاد والإبداع..
- لكن هناك _ غير هؤلاء جميعا من يتحفظون على جميع هذه المواقف والرؤى .. ويرون أن إسلامية المعرفة ، وإن تكن شعارا جديدا ، إلا أنه يعبر ، برأيهم ، عن رسالة فكرية جليلة ومهمة ثقافية ثقيلة الحمل! تمثل واحدة من السمات الثوابت والقسمات الأصيلة في حضارتنا الإسلامية منذ ظهر الإسلام..

وللبرهنة على ذلك .. كان لابد من ضبط وتفسير المصطلح والشعار – إسلامية المعرفة – لتبيان المقاصد ، وتبديد الغموض .. ليؤيد من يؤيد عن بيئة .. ويعارض من يعارض عن بيئة .. ويقلع الذين يمتهنون القضية عن هذا الذي يفعلون.

ولابد كذلك ، من وضع القضية في مكانها وإطارها الطبيعي والصحيح .. كبديل إسلامي ، ومذهب إسلامي في المعرفة ، يقابل ويخالف المذاهب المادية والوضعية والحسية في المعرفة .. وإقامة الدليل على أن هذا هو مكان وخطر هذه القضية .. كانت البديل الإسلامي في المعرفة ، الذي واجه به القرآن الكريم مذاهب الشرك في المعرفة المادية .. وكانت البديل الإسلامي في المعرفة ، الذي واجه به فكرنا الإسلامي المبكر مذاهب الديانات الوضعية في المعرفة «الحسية - التجريبية » ، المبكر مذاهب الديانات الوضعية في المعرفة (الحسية - التجريبية » ، عندما رأتها هذه المذاهب مصدرا وحيدا لمعارف الإنسان .. فكانت هي - إسلامية المعرفة - « مقالة الإسلاميين » - في المعرفة الإنسانية _ التي واجهوا بها مقالات غير الإسلاميين - في هذا الميدان .

كانت كذلك ، في النشأة ، وفي التطور .. كما هي الآن ، عندما يطرحها هذا الشعار الجديد - إسلامية المعرفة - ليواجه بها مذاهب الحضارة الغربية في المعرفة .. المادية منسها والوضعية .. والتجريبية .. والوضعية المنطقية .. والسلوكية .. وغيرها من المذاهب التي تشترك في نفي العلاقة بين «كتاب الوحي » - المناهب التي تشترك في نفي العلاقة بين «كتاب الوحي .. وبين «كتاب الوجود» -المنان ..

وتلك هي المهمة التي تطميح لبلوغها صفحات هذا الكتاب إن شاء الله...

(الفصل الثاني

التعريف.. والضبط للمصطلحات

والآن

ماذا يعنى هذا المصطلح - الشعار - « إسلامية المعرفة » ؟؟..

● إن « الإسلامية » ، هي النسبة إلى الإسلام .. وإذا كان الإسلام — لغة – هو الخضوع والانقياد لما أخبر به الرسول على من البلاغ الإلهي ، المتمثل في القرآن الكريم ، ومن البيان النبوى ، المتمثل في السنة النبوية الصحيحة .. فإن الإسلام – في الاصطلاح – هو الدين ، اللذي وضعه الله ، سبحانه وتعالى لعباده ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ (١).. فهو : وضع إلهي ، يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول على .. من البلاغ الإلهي ، والبيان النبوى..

فالإسلام - في الاصطلاح - هو: الوضع الإلهي .. وفي اللغة .. هو الانقياد لهذا الوضع الإلهي .. أي الانقياد لله ، ولما جماء من الشرائع والأحكام ، التي تلقيناها عن رسول الله (٢).

« فالإسلامية » هي النسبة إلى هذا الدين الذي وضعه الله ، أي إقامة العلاقة مع الوحي ونبأ السماء ..

⁽١) سورة آل عمران الآية: ١٩.

 ⁽۲) انظر: الجرجانى [التعريفات] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م. و[معجم ألفاظ
 القرآن الكريم] - وضع مجمع اللغة العربية - القاهرة - طبعة ١٩٧٠م.

● أما « المعرفة » فإنها : خلاف الإنكسار .. وإدراك الأشياء وتصورها .. فهى : العلم الكسبى الخاص بالبسيط والجزئى والذى فيه إدراك وتصور – وتلك صفات وجهود بشرية إنسانية –.

وعندما يسراد « بالعلم » : الاعتقاد الجازم المطابق للواقع .. أو : إدراك الشيء على ما هو به.. أو : حصول صورة الشيء في العقل .. فإنه — وفق هذه التعريفات — يكون مرادفا للمعرفة ، لاشتراكه معها في كونه كسبيا ، معتمدا على الإدراك والتصور .. وخاصا بالبسيط وبالجزئيات..

أما عندما يكون العلم: صفة للإحاطة بالكليات والجزئيات جميعا، على نحو يكون فيه العلم علّة وسببا للموجود والمعلوم - وليس معلولا لهما - وغير متوقف على الإدراك والتصور - وأمثالهما من الخصائص البشرية الإنسانية - فذلك هو العلم الإلهى.. المفارق للمعرفة .. لأن علم الإنسان ومعرفته معلولة ومسببة عن الموجود ، وليست سببا وعلة لوجود هذا الموجود..

فالعلم: منه الكسبى – المرادف للمعرفة – ومنه غير الكسبى – وهو العلم الإلهى .. ولا يسمى معرفة .. لأن المعرفة كسب ، بالإدراك والتصور ، فى نطاق البسيط والجزئى .. وليس هكذا علم الله ، غير الكسبى ، والمحيط بالكليات والجزئيات..

فكل « معرفة » هى « علم » .. وليس كُل « علم » هو بالضرورة « معرفة » .. والله سبحانه وتعالى ، عالم .. ولا يوصف بالعارف .. أما الإنسان فإنه عالم وعارف، بهذا المعنى الذى حددناه..

وفيما هو بسيط. يقال: علمته ، وعرفته .. ولا يقال علمته فيما لا يحاط به ، لخروجه عن البسيط .. ولذلك يقال : عرفت الله .. ولا يقال علمته ! ، لأن المعرفة تقال فيما يُدْرَك بآثاره ، ولا تُدْرَك ذاته..

ولارتباط المعرفة بالكسب وبالواسطة – أدوات الإدراك والتصور – كانت خاصية إنسانية .. ويشهد على هذا قول رسول الله على : ﴿ وَلَكُ نَا أَعُلَمُكُم بِالله ، وإن المعرفة فعل القلب » ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَكُ نَا يَوْاخَذُكُم بِمَا كَسِبِت قَلُوبُكُم ﴾ (١) ... (٢).

وكما لا يقال: الله عارف.. كذلك لا يقال فى حقه، سبحانه: عاقل: كما لا تطلق الدراية عليه أيضا^(٣).

أى أن بين « المعرفة » و« العلم » خصوصا وعموما..

فالمعرفة إنسانية ، لأنها كسبية ، وبالوسائط ، وخاصة بالبسيط والجزئى ، وما يُدْرَك بآثاره ، ولا يُدْرَك كنه ذاته .. وتلك من سمات وخصائص وحدود الإنسان .. أما العلم فإنه أعم من المعرفة ، إذ فيه الكسبى ، الواقف عند البسيط والجزئى – وهذا هو العلم الإنسانى – الذى هو معرفة إنسانية .. وفيه كذلك ، العلم غير الكسبى ، علم ما هو

⁽١) سورة البقرة الآية ٢٢٥.

⁽۲) رواه البخارى.. «ولو سأل سائل: لم قال الرسول: «أعلمكم» ولم يقل : أعرفكم البخارى.. «ولو سأل سائل: لم قال الرسول: أن مصدر المعرفة النبوية هنا هو الوحى لا الكسب. فهى علم» (٣) انظر فى هذه المعانى [معجم ألفاظ القرآن الكريم] و [التعريفات] ـ للجرجانى - و [المعجم الفلسفى] وضع: د. مراد وهبة، ويوسف كرم، ويوسف شلالة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م.

مركب، العلم المحيط، والكلى ، والمُسبِّب للموجودات ، وليسس المنعكس عنها .. وهذا هو علم الله ، سبحانه وتعالى..

ولذلك، فإن « الوحى »، رغم بلوغه لنا عن طريق الرسول هو « علم » ، لا « معرفة » ، لأنه تنزيل الله ، وبلاغ الرسول ، ولا كسب فيه من الرسول ولا اكتساب.. أما فهمنا له ، فهو علمنا به ومعرفتنا له ، بالكسب والاكتساب!.. فالعلوم الشرعية فيها « علم إلهى » – هو البلاغ القرآنى وبيانه النبوى – وفيها « معرفة إنسانية » – هى اجتهادات المجتهدين وفقه الفقهاء فى البلاغ القرآنى والبيان النبوى..

هذا عن الضبط والتعريف والتفسير لمصطلحات الشعار.. شعار «إسلامية المعرفة ».. فمعناه إذن: العلاقة بين الإسلام وبين المعرفة.. أي الصلة بين «كتاب الوحي» – القرآن الكريم – وبيانه النبوى – وبين «كتاب الوجيد » – ومعارف الإنسان في علوم الوجود – الإنسانية منها والطبيعة..

فهى - إسلامية المعرفة - إذن: المذهب القائل بوجود علاقة بين الإسلام وبين المعارف الإنسانية ، والرافض لجعل الواقع والوجود وحده المصدر الوحيد للعلم الإنساني والمعرفة الإنسانية..

ولذلك، كان تميز هذا المذهب في المعرفة، أيضا باعتماد كل أدوات وسبل المعرفة ، المناسبة لإدراك حقائق ومعارف كل من المصدرين.. وليس، فقط، اعتماد الحواس – وتجاربها – لأنها إن نهضت بمهام الإدراك لحقائق « الوجود » « وعالم الشهادة » ، فلن تفى بإدراك حقائق وتصورات « كتاب الوحى » « وعالم الغيب »..

وإذا كانت المعارف والعلوم منها ما هو: «إلهى - شرعى»، ومنها ما هو: «بشرى.. ومدنى.. وحضارى.. ودنيوى ».. فإن هذا التقسيم لا يعنى «الفصل» التام بين «الإلهى - الشرعى» وبين «البشرى - المدنى».. وإنما يعنى «التمييز» فقط، بين العلوم والمعارف التى «موضوعها: الوحى - القرآن - وبيانه - السنة».. فهى : إسلامية الموضوع والمصدر والمنطلقات والمقاصد والغايات .. وفيها من «المدنى» : اجتهادات المجتهدين وفقه الفقها، فى فهم الوحى وبيانه ، وبذلهم الوسع واستفراغهم الجهد فى استنباط الجزئيات من الكليات .. وفي تقعيد ذلك علوما لها هندسة العلوم!..

« التمييز » - وليس « الفصل » التام – بين هذه العلوم « الشرعية » وبين العلوم « المدنية البشرية الحضارية » – الإنسانية منها والطبيعية – والتي موضوعها « الكون » – مادته.. وظواهره.. وطاقاته – و «النفس الإنسانية» – في ذاتها.. واجتماعها.. وعلاقاتها. فموضوعات هذه العلوم « المدنية » ومنطلقاتها ليست «الوحي والدين» ، وإنما هي «الكون والإنسان والاجتماع الإنساني »..

وإذا كانت العلوم والمعارف « الإلهية - الشرعية » هي إسلامية الموضوع والكليات والمنطلقات .. وفيسها من « المدنى » اجتسهادات المجتهدين وققه الفقهاء في الفروع والجزئيات وفي التقعيد .. فإن علوم

«الكون» ومعارفه «بشرية – مدنية» الموضوع والكليات والمنطلقات.. وإسلاميتها إنما تعنى إيجاد علاقة بينها وبين السنن الإلهية ، التى جاء بها الوحى ، فى الكون والإنسان والاجتماع .. وكذلك توظيف هذه العلوم والمعارف – عن طريق أسلمة فلسفتها – لتحقيق المقاصد والغايات الشرعية التى حددها الوحى «حكمة» لخلق الله، سبحانه وتعالى ، الكون والإنسان .

فعلاقة «كتاب الوحى: الإسلام » بالمعارف قائمة – أو يجب أن تقوم – فى كل أنواع المعارف والعلوم.. لكن المدى المُحَقِّق « للإسلامية » فى هذه المعارف والعلوم يتفاوت، «كَمَّا » و «كيفا »، فى « الإلهى – الشرعى » منها عن « البشرى – المدنى » .. كما يتفاوت فى «الإنسانى – الاجتماعى » منها عن « الطبيعى »..

هذا عن التعريف.. والضبط لمصطلحات هذا الشعار..

الفصل الثالث

أمثلة.. وتطبيقات

وإذا كان هذا هو معنى المصطلح والشعار: «إسلامية المعرفة».. أى إقامة العلاقة بين «الإلهبي» و «الإنساني» في العلوم والمعارف.. والعلاقة المناسبة التي تقيم المعرفة الإنسانية على الساقين - «الإلهبي» - «والكوني» - فتحفظ لها وعليها «التوازن - الحق»، وتعصمها من «الثنائية .. والانشطار»، وذلك دون أن يصبح «الإنساني» «إلهيا»، له قدسية الإلهبي وثباته .. ودون أن يصبح «الإلهبي» «إنسانيا»، كما هو الحال عند الذين جعلوا الدين وضعا بشريا وإفرازا لعقل الإنسان وثمرة من ثمرات الاجتماع الإنساني.

إذا كان هذا هو المعنى المراد من المصطلح والشعار .. فإن قضيتنا الأساسية – قضية إسلامية المعرفة – هى خاصة بهذه العلوم والمعارف «البشرية – المدنية » .. فهى التى من الممكن أن تكون «إسلامية » – إذا قامت العلاقة بينها وبين «كتاب الوحى » ومن الممكن أن تكون «لا إسلامية » – إذا وقفنا بمعارفها عند «كتاب الوجود » والأدوات الحسية للإدراك ..

وإسلامية هذه المعارف معناها: أن يصدر إدراكنا وتصورنا ومعرفتنا لموضوعاتها حال استحضارنا السنن والقوانين والضوابط والمقاصد الشرعية المتعلقة بها ، والتي جاءت « في كتاب الوحي » وفي بيانه النبوى ..

أى اكتشاف علاقة « كتاب الوجود » بـ « كتاب الوحى » أثناء دراسة وتطبيقات هذه العلوم البشرية – المدنية .. الحضارية ..

ولعل هذا الكتاب ، عندما يركز على معنى إسلامية المعارف الإنسانية ، أن يقيم الدليل – ولو بشكل سريع وغير مباشر – على «إلهية» «العلم الديني»، الذي زعمت مذاهب المعرفة المادية والوضعية بشريته! .. ولحسن الحظ. فليست هذه بالقضية المثارة ، وذات الأنصار، في واقعنا الفكري .. وإنما القضية المثارة .. والتي تستحق التركيز عليها ، هي إسلامية أو لا إسلامية معارف وعلوم الإنسان! .. وإذا كان الأمر كذلك .. فلعل أمثلة نضربها على ما تعنيه إسلامية المعرفة في بعض قضايا هذه العلوم والمعارف البشرية – الاجتماعية منها والطبيعية – لعل أمثلة نضربها على ما تعنيه هذه العسلاقة، المحققة للإسلامية ، أن تكون مفيدة بل وضرورية، عند هذا الحسد من هذا

● فنحن ، مثلا ، إذا درسنا علم الاقتصاد ، باعتباره : العلم الذى يبحث فى مشاكل التوفيق بين الموارد المحدودة وحاجات الإنسان غير المحدودة ، والمتفاوتة فى الأهمية .. أى علم تدبير الحلول لمشكلة الإنسان الاقتصادية – التى تتعدد فيها غاياته .. وتختلف أهمية كل منها .. وتقل وسائل الوصول إليها .. مع إمكانية استعمالها في أغراض متضاربة (۱)..

البحث.

 ⁽۱) انظر - في هذا التعريف - [معجم العلوم الاجتماعية] - وضع اليونسكو طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م.

إذا نحن درسنا علم الاقتصاد بهذا الاعتبار، وفقط. كانت المعرفة الاقتصادية المستخلصة من هذه الدراسة متحررة من «الإسلامية ».

أما إذا نحن درسنا الاقتصاد باعتباره علم تدبير إشباع وكفاية الاحتياجات ، في ضوء الموارد ، وعلى ضوء وفي إطار : السنن الإلهية والضوابط الشرعية والمبادئ والكليات الإسلامية – من مثل فلسفة الإسلام في الملكية – الله هو المالك الحقيقي – مالك الرقبة – في الثروات والموارد والأموال .. ونظرية الاستخلاف والخلافة الإنسانية عن الله – استخلاف الإنسان ، من حيث هو إنسان ، مستخلف عن الله في الموارد والثروات والأموال .. له فيها ملكية مجازية – ملكية الانتفاع .. المحكومة في الحيازة .. وفي الاستثمار .. وفي الانفاق – بمقاصد الشريعة ، التي هي بنود عقد وعهد التوكيل والاستخلاف ..

إذا نحن درسنا الاقتصاد في ضوء هذا «الإطار الإلهي»، نكون قد أقمنا علمه على ساقين، واستقينا معارفه من مصدرين «كتاب الوجود» – الموارد .. والاحتياجات – و «كتاب الوحي» – الفلسفة الإسلامية في الأموال – وهنا تتحقق «الإسلامية» للهرفة» الاقتصادية ، على النحو الذي يميزها عن نظيرتها في الفلسفات والمناهج المادية والوضعية ..

وإن حال نبى الله شعيب ، عليه السلام ، مع قومه – أهل « مدين » – والحوار الذى دار بينهما – والذى حكاه القرآن الكريم – حول المفاهيم الاقتصادية ، وضوابطها الدينية وحول التطبيقات والمعاملات الاقتصادية ، المضبوطة بالضوابط الدينية .. أو المتحررة من هذه الضوابط. إن هذا الحوار لهو نموذج لهذا الذى نقول ..

فشعيب ، عليه السلام ، كان يرى : أن التوحيد والإيمان والصلاة والعبادة – أى الدين – يقتضى ضوابط للسلوك الإنسانى فى الاقتصاد والمعاملات المالية – توفية المكاييل والموازيان بالقسط (العلدل) ، والامتناع عن بخس الناساس أشياءهم فى البيع والشراء.. والحذر من الإفساد فى الأرض.. إلخ . فدعا قومه إلى إقامة العلاقة بين «الدين » وبين «الاقتصاد » .. فى الفكر والتطبيقات ..

أما قومه، الذين عصوه، فإنهم كانوا يرفضون الربط والعلاقة بين «الدين» وبين «المعاملات المالية والاقتصادية» .. فهو يريد اقتصادا مضبوطا بضوابط الدين ، قائما على معارف «الوحيى» و «الواقع» كليهما. بينما هم يريدون الفصل ما بين الدين والاقتصاد .

هو يريد «إسلامية الاقتصاد»-فالدين عند الله الإسلام-في جميع الرسالات، وعند كل المرسلين-وهم يريدون تحرير الاقتصاد من العلاقة بالإسلام.

والقرآن الكريم يحكى هذا الحوار ، المجسّد لهذه القضية .. والذى بدأه نبى الله شعيب ، عليه السلام ، مخاطبا قومه ، فقال :

﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عنذاب يوم محيط ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين و بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾(١).

⁽١) سورة هود الآيات ٨٤ : ٨٦.

لكن قومه أجابوه -مستنكرين دعوته لإسلامية الاقتصاد، وضبط المعاملات المالية بضوابط الدين - ومدافعين عن مذهب تحرير الاقتصاد من العلاقة بالدين .. فقالوا : ﴿ يا شعيب ! أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا او أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد (۱)..

لقد عجبوا من ربط دعوته بين « التوحيد » للمعبود ، وبين « ضبط التصرفات المالية » بضوابط « دين ودعوة التوحيد » .

فرد عليهم شعيب ، معلما إياهم أن الدين - دين البيّنة الإلهية - يقتضى ضبط الأموال - التي هي رزق الله - بضوابط الإصلاح الديني . . وذاكرًا لهم أنه يريد لهم الالتزام بما يلتزم هو به ، حتى لا يحل عليهم غضب الله ، الذي حل بالأقوام السابقين ، الذين عصوا نوحًا وهودًا وصالحًا ولوطًا ، عليهم السلام .. فقال :

﴿ يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا ، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ، ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ (٢).

على هذا النحو حكى القرآن الكريم ذلك الحوار الذى دار بين شعيب وبين قومه، حول علاقة «كتاب الوحى» بدواقع الاقتصاد».

⁽١) سورة هود الآية ٨٧.

⁽٢) سورة هود: الآيتان ٨٨ ، ٨٩.

فإذا حسب الإنسان نفسه سيد هذا الكون .. واعتقد الإطلاق والإباحة الكاملة لحريته في التصرفات المالية والتدابير الاقتصادية ، فلن يراعي في طرائق الكسب .. والاستثمار .. والإنفاق – إلا منفعته ، ولذته ، ومصلحته – وفق معاييره الإنسانية البحتة في «المنفعة» و «اللذة» و «اللصلحة» – وهنا يكون اقتصاده متحررا من ضوابط الوحي والدين.

أما إذا آمن الإنسان بأنه ليس سيد هذا الكون، وإنما هو خليفة عن سيد هذا الكون وبارئه وراعيه ، سبحانه وتعالى.. وأنه ليس مالك الرقبة – المالك الحقيقى.. والمطلق الحرية.. في الأموال والموارد والثروات.. وإنما هو وكيل ومُسْتَخْلفَ في هذه الموارد والأموال والثروات.. فإن طرائقه ، عندئذ في الكسب .. والاستثمار – والإنفاق ، لابد وأن تكون الخا أراد أن يكون مطيعا لمن استخلفه – محكومة ومضبوطة بالإطار والفنسفة والمبادئ المتمثلة في عقد وعهد الاستخلاف .. أي المقاصد الشرعية في الأموال .. وهنا ينضبط الاقتصاد بكافة الضوابط الإسلامية ، التي جاء بها «الوحي» و «بيانه» في الكسب والاستثمار والإنفاق.. من مثل: فلسفة الإسلام في الملكية والحيازة.. وأحكامه في الكنز.. والأواعد التي قررها والاحتكار.. والفروض التي فرضها الله في الأموال.. والقواعد التي قررها للمعاملات.. إلخ.

وهنا — بإقامة هذه العلاقة بين آيات الاقتصاد في « كتاب الوحى » وبين باب الاقتصاد من « كتاب الكون » ، تتحقق إسلامية الاقتصاد ، في المعرفة وفي التطبيقات !..

وإذا نحن درسنا علم السياسة ، سياسة المجتمع ، والدولة ، والعلمات الدولية ، باعتبار السياسة هي : الإدراك والتصور والعمل

لما هو « ممكن » من الخيارات « الواقعية » والقائمة والمحتملة ، تحقيقا للمصلحة – مطلق المنفعة – واقفين بهذا العلم عند كونه « فن ممارسة القيادة والحكم ، وعلم السلطة أو الدولة .. وفرع « العلم المدنى » ، الذى يبحث أصول الحكم وتنظيم شئون الدولة تدبيرا تغلب فيه الجودة والإتقان ..

إذا نحن درسنا علم السياسة ، باعتبار أن هذه هي مضامينها ومقاصدها ، كانت دراستنا له متحررة ومتحللة من الإسلامية .. فلا تكون السياسة ، عندئذ « سياسة شرعية » .. وهذا المنحى في دراسة السياسة هو الذي جعلها في المنظور الغربي « نفعية صرفة » – دون تقييد النفع بالقيود الشرعية – فبررت غاياتها كل الوسائل ، بصرف النظر عن مدى أخلاقية تلك الوسائل .. فكان « الصراع » و « القوة » أهم العناصر الرئيسية في المفهوم الغربي للسياسة (۱).

أما إذا نحن أقمنا العلاقة بين «الإسلامية» وبين «المعرفة السياسية». أى الصلة بين «لشرعى» و«المدنى» فى هذا العلم – الذى هو من العلوم «الإنسانية – المدنية » – فإننا سنضبط مفاهيمه وممارساته بالمنطلقات والمقاصد الشرعية ..

وهذه العلاقة بين «الشرعى» و«المدنى» لن تجعل السياسة دينا خالصا، ومقدسا، ثابتا – لأنها ليست من أركان الدين وأصول الاعتقاد

⁽۱) انظر في هذه المضامين [المعجم الفلسفي] وضع مجمع اللغة العربية – القاهرة سنة ١٩٧٩م و [معجم العلوم الاجتماعية] وضع اليونسكو – طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م. و [قاموس علم الاجتماع] بإشراف د. عاطف غيث طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩م. و [موسوعة السياسة] المؤسسة العربية للدراسات والنشر –بيروت سنة ١٩٨٣م.

وثوابت الشرع – ولم ينزل الوحى وينطق الرسول على بكل ما هو لازم لها وفيها .. كما أن إقامة هذه العلاقة بين « الإسلامية » وبين « المعرفة السياسية» .. لا تعنى بحال من الأحوال تجاهل « الواقع السياسي» وخياراته ، ولا التقليل من مكانته في المعارف السياسية .. ولا تجاهل «المصلحة والمنفعة » المبتغاة من علم السياسة. وإنما تعنى هذه العلاقة : الإضافة إلى « الواقع » وضبط خياراته ، وليس إلغاءه أو تجاهله أو الغض من قيمته ، وضبط « المصلحة والمنفعة » وليس تجاهلها .. فهي تضيف إلى «الواقع» ، كمصدر للمعرفة السياسية ، «مصدر الوحى» بسننه الإلهية في الاجتماعي الإنساني ، وبالقيم والتكاليف والمقاصد الشرعية والحكم المراد تحقيقها من الاجتماع والمجتمعات .. وتضبط «المصلحة والمنفعة» حتى تكون «المصلحة الشرعية المعتبرة» ، وليست المصلحة المطلقة والمتحررة من أخلاقيات الدين.

فهى العلاقة التى « تضيف .. وتضبط » تضيف « للواقع المادى » و « للمعرفة الحسية » .. وتضبط « الخيارات » المختارة بالمقاصد الشرعية التى حددها الإسلام لسياسة الناس ..

وعندئذ لن نجد السياسة: « فن الممكن من خيارات الواقع » – هكذا بإطلاق – وإنما سنجدها: « الأفعال والتدابير التي يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح – بالمعنى الإسلامي – وأبعد عن الفساد – بالمعنى الإسلامي – حتى وإن لم ينزل بها الوحي أو يشرعها الرسول » .. كما قال واحد من علماء السلف – على بن عقيل البغدادي [٣٠١ – ٣١٥هـ / ١٠٤٠م – ١١١٩م].

وسنجد في السياسة ، عندئذ : « الكليات - والمبادئ - الثوابت » التي تتطور التي تمثل « أطُرا » « للجزئيات - الفروع - المتغيرات » ، التي تتطور

بحسب « المصلحة الشرعية المعتبرة » ، ووفقًا لاختلافات الأزمان والأماكن وتبدل العادات والأعراف (١).

وفى « السياسة الشرعية » سنجد «للدولة – السلطة » معنى متميزا عن معانيها فى «السياسة المدنية»، غير الإسلامية .. فهى ليست الجهاز المحايد تماما بين طبقات وفرقاء المجتمع .. وليست جهاز القوة والقهر للطبقات والفرقاء المحرومين من السيطرة والسيادة فيها .. وإنما هى « دولة التوازن » بين الفرقاء المثلين للتعددية فى مجتمعها .. فالتوازن هو الوسط .. أى العدل .. بين الفرقاء المتعددين.

● ففى قانونها توازن بين مبادئ الشرعية .. التى هى حاكمية الله – « السيادة » – وبين فقه العاملات – الفروع – الذى هو ثمرة لاجتهاد مجتهدى الأمة ، ينمو ويتطور مواكبة للمصالح الشرعية المعتبرة ..

● وفى قيادتها توازن بين «عدل ولاة الأمر» وبين «طاعة الأمة».. فانتفاء «العدل» يحل الأمة من «طاعة» أولياء الأمور!.. وأعلى مراتب رأس الدولة هى مرتبة «الاجتهاد» – ولا عصمة لمجتهد – أما الأمة فلإجماعها «العصمة».. « وإن أمتى لا تجتمع على ضلالة»(٢).. وحتى عندما كان رأس الدولة «النبى –الرسول» الذي يوحى إليه ، فإنه كأن يميز بين «تبليغه عن ربه» ، الذي هو معصوم فيه ، لا ينطق عن الهوى .. وبين «إمامته السياسية وقيادته

⁽۱) انظر: ابن القيم [إعلام الموقعين] جملة ص ٣٧٣، ٣٧٣، ٣٧٥ طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م. و [الطرق الحكمية في السياسة الشرعية] ص ١٧ - ١٩. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م.

⁽۲) رواه ابن ماجة ..

للدولة»، بالاجتهاد البشرى والإنشاء للتدابير والسياسات .. وعن هذه الاجتهادات السياسية تحدث ﷺ في مسرض موته ، عندما صعد المنبر وخطب الناس فقال: « أيها الناس ، من كنت جلدت له ظهر فهذا ظهرى فليَسْتَقدِ (١) مِنِّى ، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منى ، ومن أخنت له مالا فهذا مالى فليسأخذ منه ، ولا يخشى الشحناء من قبلي فإنها ليست من شأني .. »^(۱) ! ..

« فالعصمة » للأمة .. وأعلى مراتب الحاكم هيي « الاجتهاد » ، حتى ولو كان نبيا ورسولا ..

● وسنجد « شورى الأمة » مقيدة بسيادة وحاكمية الشريعة – التي هى وضع إلهى - وفي ذات الوقت هي ملزمة لدولتها .. فيهي فريضة إلهية وضرورة شرعية واجبة ، وليست مجرد « حـق » يجـوز لهـا أن تتنازل عنه إن هي أرادت ذلك .. هي فريضة حتى على رسول الله ﷺ .. ﴿ وشاورهم في الأمر .. ﴾ (").. وصفة من صفات الأمة المؤمنة .. ﴿ والذين اسـتجابوا لربـهم وأقـاموا الصـلاة وأمرهم شـورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾ (١). وهي ملزمة للحاكم ، حتى ولو كان نبيا ورسولا .. لأنها اجتهاد فيما فيه اجتهاد ، ولم يقطع الوحي فيه بتشريع .. وشورى الأغلبية نافذة في كل الحالات .. ورسول الله على ،

⁽۱) أي فليقتص..

⁽٢) رفاعة الطهطاوى نهاية الايجاز في سيرة ساكن الحجان - جـ ٤ ص ٣٨٨ من [أعماله الكاملة] دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٧م. (٣) سورة آل عمران الآية: ١٥٩.

⁽٤) سورة الشوري الآية: ٣٨.

هـو القـائل لأبـى بكـر وعمـر: «لـو اجتمعتمـا فـى مشـورة ما خالفتكما..»(). والقـائل – وهـو رأس الدولـة وحاكمـها – : « لـو كنت مُؤَمِّرًا أحـدًا دون مشـورة المؤمنين لأمَّـرْتُ ا ـن أم عبد !»() – عبد الله بن مسعود .

وعلاوة على أن « إقامة الدولة » إنما تتم بشورى الأمة واختيارها وبيعتها .. فإن حق الطاعة الذى « للدولة » على «الأمة » يظل مشروطا ومرهونا ببقاء «الدولة» ممثلة « للأمة »، وموضع الرضا منها .. فالقرآن لم يتحدث عن « ولى الأمر » الفرد .. وإنما تحدث عن « أولى الأمسر » لم يتحدث عن « أولى الأمسر » في الموطنين اللذين ورد فيهما هذا المصطلح في القرآن الكريم – لقد اختار صيغة « الجمع » لا «الفرد» .. وربط الطاعة « لأولى الأمسر » بكونهم من « الأمة » ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمسر منكم ﴾ (" .. ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمسر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم .. ﴾ (أ) .. فهو يزكي القيادة الجماعية الشورية للدولة .. ويشترط لطاعة أولى الأمر من قبل الأمة ، أن يكونوا منها ، أي موضع اختيارها ومصدرا لثقتها ، وأهلا لقيادة دولتها وسياسة مجتمعها ، والمثلين لمصالحها الشرعية المعتبرة..

⁽١) رواه الإمام أحمد.

⁽٢) رواه النرمذى وابن ماجة والإمام أحمد.

⁽٣) سورة النساء الآية . ٩٥

⁽٤) سورة النساء الآية: ٨٣

● وسنجد في «أمة » هذه «الدولة »: التعددية في إطار الإيمان الوحدة .. تعددية أهل الشرائع الدينية المختلفة ، في إطار الإيمان الديني .. وتعددية التيارات التي تتنوع اجتهاداتها في الفروع ، داخل إطار الوحدة في الأصول ..

سنجد ذلك —ومثله كثير — فى «دولة» «السياسة الشرعية »، التى تتميز «معرفتها السياسية» بـ «الإسلامية»، أى إقامة العلاقة بين ماهـو « شرعى » وما هـو « مدنى » فى هـذا العلم مـن علومنا الإنسانية.

● وإذا نحن درسنا موضوعات « العلم الزراعـى »—أرضا.. وبذرا.. وماء.. ومناخا — فإن حقائق هذا العلم وقوانينه— كواحـد من العلوم الطبيعـة — لن تتغاير بتغاير معتقدات وحضارات وقوميات ولغات الدارسين.. ففى العلوم التى تتميز « موضوعاتـها » بالثبات والحياد .. تتميز حقائقـها وقوانينـها، هـى الأخـرى، بالثبات والحياد — فـهى تتميز حقائقـها وقوانينـها، هـى الأخـرى، بالثبات والحياد — فـهى «مشترك إنسانى عام »— ليس فيها شرقى وغربى، أوإسلامى ومسيحى أو مؤمن وكافر .. «فالواقع» هو مصدر معرفتـها.. «والحـواس» هـى أهـم أدوات المعرفة فيها.

لكن «إسلامية العلم الزراعي » ، تتأتى عندما نقيم العلاقة بين المقاصد الشرعية من الزراعة وبين تطبيقات ووظائف حقائق وقوانين هذا العلم الزراعي .. أي عندما نقيم العلاقة بين « الخصوصية الإسلامية » في « فلسفة العلم الزراعي » وبين « حقائق وقوانين الزراعة » . التي هي « مشترك إنساني عام ».

فحقائق وقوانين العلم الزراعى - ككل حقائق وقوانين العلوم - إذا نحن وظفناها فى دعم الإيمان بخالق هذا الكون ، الذى أمرنا بالنظر والتدبر ، والذى أعاننا عليه، قادنا هذا الموقف إلى العلماء الذين هم أكثر خشية لله ، لأنهم الأكثر معرفة بأسرار العلوم الكاشفة عن بعض أسرار الله فى الأكوان . ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ (١).

أما إذا لم توظف الحقائق العلمية هذا التوظيف الإيمانى ، فإنها قد تقود وتفضى إلى علماء لا يعلمون سوى ظاهر من الحياة الدنيا .. ومن ثم يقودهم الغرور إلى تأليه العلم والعلماء باعتباره « دين العصر » وباعتبارهم «الروحانيين الجدد»! .. ولقد شهدنا ، عندما تقدمت العلوم فى أوربا حديثا، وفى ظل «المادية .. والوضعية » «علماء» صاحوا صيحة منكرة ، فقالوا : لقد مات الله ؟! .. تعالى الله عن ما صاحوا به علوا كبيرا ..

ووجه آخر لهذه القضية .. فكما يمكن توظيف حقائق العلم لدعم الإيمان .. أو لزعزعته .. فإن من الممكن توظيف تطبيقات هذه الحقائق فى تحقيق مقاصد الشريعة ، طاعة الله ، سبحانه وتعالى ، أو فلل المحرمات ، عصيانا لله ! .. فإذا كانت حقائق زراعة « العنب » لا تتغاير بتغاير المعتقدات .. فإن زراعة « العنب » للالخمر» هى تطبيق وتوظيف غير إسلامى لحقائق وقوانين زراعته ..

كذلك فإن «كيمياء » تركيب وتصنيع «السماد» الذى يستخدم فى تسميد الأرض الزراعية .. هى حقائق وقوانين تجريبية ، تدخل فى العلم الطبيعى، الذى هو «مشترك إنسانى عام»، لا تتغاير بتغاير

⁽١) سورة فاطر الآية : ٢٨.

الحضارات والعقائد والفلسفات .. فليست فسى « كيمياء السماد » خصوصيات حضارية .

لكن فلسفة استخدام وتوظيف هذا العلم الطبيعى تختلف باختلاف المقاصد والغايات المحركة للإنسان الذى يوظفه ويطبقه .. وباختلاف نظرة هذا الإنسان للطبيعة – الأرض .. والبيئة – التى يوظف فيها ثمرات هذه « الكيمياء » ..

● فالحفاظ على التوازن بين المكونات الطبيعية والقوى الذاتية والعناصر الخِلْقِيَة لللأرض الزراعية وبين طاقاتها في الإنتاج الزراعي وقدراتها على العطاء .. هو موقف وفلسفة تجعل استخدام «كيمياء السماد » بالقدر الذي يحفظ هذا التوازن ..

أما فلسفة : « قهر الأرض » – النابعة من فلسفة : « قهر الإنسان للطبيعة » – لتعطى الآن أكبر عائد مادى وأوفر محصول ، فى أقصر وقت ، بصرف النظر عن الأذى الذى يصيبها ، عندما يختل توازن تركيبها ، بغلبة « الصناعى » على « الطبيعى » فيها .. وعلى حساب مستقبلها – والذى هو مستقبل الأجيال الآتية لتحيا عليها : – أما هذه الفلسفة – فلسفة قهر الطبيعة ، لتعطى أعلى معدلات الوفرة المادية ، فى اللحظات الآنية –فلسفة : « واغنم من الحاضر لذاته !» – بأى ثمن .. وبصرف النظر عن النتائج ! .. فإنها هى التطبيقات التى تتغاير وتختلف باختلاف الفلسفات والعقائد والحضارات ..

وأيضا.. فإن استزراع الغابات هو السبيل إلى قيام الغابات! ولهذا الاستزراع قوانينه وحقائقه العلمية، العامة والثابتة.. كما أن قطع أشجار الغابات هو السبيل إلى الحصول على أخشابها.. ولذلك آلياته وقوانينه العامة.. وليس هناك مغايرة فى حقائق وقوانين الاستزراع للغابات.. ولا فى حقائق وقوانين القطع لأشجارها، بتغاير مذاهب الأمم والحضارات والديانات..

لكن إزالة الغابات، وتجريد الأرض منها، لزرع أرضها بالمحاصيل الأخرى.. أوللانتفاع بأخشابها.. أو لإقامة المشروعات غير الزراعية عليها.. أو إبادتها بالتلوث وبالحروب.. دون اعتبار لعامل التوازن البيئى الذي يحافظ وجودها عليه، ويخل به قطعها وإزالتها .. هي فلسفة متميزة في النظر إلى الطبيعة ، وفي التعامل مع البيئة والمحيط.. إنها الفلسفة التي نشهد اليوم آثار شيوع تطبيقاتها ، في صور الإخلال بتوازن البيئة ، الأمر الذي يجر على الإنسانية الكوارث والمخاطر الجسام .

إن الفيضانات والسيول التى تعانى منها بلاد عدة فى شبه القارة الهندية ، لها علاقة عضوية بتجريد جبال الهملايا من غاباتها .. وإن الجفاف الناشئ عن تغير مواعيد ومقادير الأمطار التى تسقط على بلاد القارة الأفريقية ، هو ثمرة مرة لتجريد هذه القارة من غاباتها .

ومثل هذه « الأمراض » تحدث وتشيع في أمريكا اللاتينية - في حوض الأمزون - وغيرها من المناطق التي وظفت فيها حقائق العلم الطبيعي وقوانينه ، لتحصيل أكبر عائد مادى في أقصر وقت ، بصرف النظر عن تأثيرات ذلك على توازن البيئة والمناخ ..

وقس على ذلك قضية «كيمياء المبيدات الحشرية » .. تلك التى لا تتغاير ، هى الأخرى ، حقائق علمها وقوانين تجاربها .. لكن فلسفات توظيفها ، وأساليب استخداماتها هى التى تتغاير .. وكذلك ثمرات هذه

التطبيقات .. فإما حفاظ على توازن الحياة والأحياء - كل الحياة وجميع الأحياء - وعلى عناصر الوجود - كل ظواهر الوجود - على النحو الذى يؤدى فيه هذا التوازن وظائفه في « النفع » وفي الحفاظ على « الوجود » .. وإما خلل يدخل بالإنسانية وبالطبيعة فيما أدخلتهما فيه الفلسفات المادية الحديثة من تطبيقات أثمرت ما نعانيه الآن من مُرَ الثمرات .

فحقائق العلم الطبيعى لا تتغاير .. وقوانينه لا تختلف _ بتغاير واختلاف العقائد والفلسفات والحضارات _ لكن فلسفة تطبيقه ، ومقاصد توظيف هي التي تختلف وتتغاير باختلاف المعتقدات وبتغاير الحضارات ..

إننا مدعوون — انطلاقا من « إسلامية فلسفة العلم الطبيعى » _ إلى النظر في آيات كتاب الوحسى التي أشارت إلى الجبال كأوتساد للأرض .. ﴿ أَلَم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا ﴾ (١)..

ونحن مدعوون ، كذلك إلى النظر في الآيات التي تحدثت عن التوازن والميزان بين كل أنواع الخلق وسائر أصناف المخلوقات .

000

إن التعددية في الألوهية - ونفى التوحيد - هي - بالدليل العقلى - مصدر الفساد والإفساد في المخلوقات ﴿ أم اتخدوا آلهة من الأرض هم ينشرون. لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله

 ⁽١) سورة النبأ الآيات : ٦ - ٨.

رب العرش عما يصفون (()... بينما التعددية، وتـوازن الفـرقاء المختلفين في كل عـوالم الموجـودات التي خلقها الله متعـددة لتتوازن (وهـو الـذي مـد الأرض وجعـل فيها رواسي وأنهارا ومـن كـل الثمرات جعـل فيها زوجـين اثنين يغشي الليـل النهار، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (()). (() ومـن كـل شيء خلقنا زوجـين لعلكم تذكرون (())...

بينما هذه التعددية ، في المخلوقات ، والتوازن بين فرقائها ، هي المقتضية للعدل والصلاح في هذه المخلوقات . وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغي . أن رآه استغنى ﴾ (1).

فالتعددية .. فى طبقات الأرض ، وفى مكوناتها .. وقيام التوازن بين هذه الطبقات وهذه المكونات .. والتعددية فى طبقات السماء ، وفى مكوناتها .. وقيام التوازن بين هذه الطبقات وهذه المكونات .. هو المعبر عن قيام إسلامية المعرفة فى فلسفة علوم الطبيعة التى تدرس ظواهرهما وقواهما وما فيهما من آيات وطاقات ..

وهذا هو معنى «إسلامية فلسفة العلم الطبيعى » .. التى تقف عندها «إسلامية المعرفة » فى «العلوم الطبيعية » ولا تتعداها إلى حقائق وقوانين هذه العلوم، التى هى بنت التجربة ، كمصدر أول لاكتشافاتها ولتطورها ..

⁽١) سورة الأنبياء الآيتان: ٢١، ٢٢.

⁽ ٢) سورة الرعد الآية : ٣.

⁽٣) سورة الذاريات الآية: ٤٩.

⁽٤) سورة العلق الآيتان : ٦، ٧.

وقس على هذا المثال ما تعنيه «إسلامية المعرفة » في العلوم والمعارف الطبيعية الأخرى .. فحقائق وقوانين «الوراثة » لا تتغاير بتغاير المعتقدات والحضارات ، لكن توظيفها يختلف باختلاف فلسفة العلم التي يعتنقها أهل التطبيق والتوظيف لهذه الحقائق والقوانين.

ومثل ذلك : الطب .. والطاقة .. والكيمياء .. والفيزياء .. وغيرها من العلوم البحتة الكونية ..

● وإذا نحن نظرنا إلى علاقة الإنسان بظواهر الطبيعة وقواها ، التى سخرها الله ، سبحانه وتعالى ، لهذا الإنسان ، إكراما له وتكريما .. والتى أشارت إلى بعض منها آيات كثيرة فى القرآن الكريم .. ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الليل والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ (١) .. ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (٢) .. ﴿ ومر بأمره وألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره بأمره بأمره بأمره الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره والفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (١٠ الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فصله وليور الفلك مواخر لكم ما فى الأرض والفلك مواخر المور المورد الم

⁽١) سورة إبراهيم الآيتان : ٣٢، ٣٣.

⁽٢) سورة النحل الآية: ١٢.

⁽ ٣) سورة النحل الآية : ١٤.

ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ (١) .. ﴿ أَلَم تروا أَن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نِعَمَهُ ظاهرة وباطنة ، ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ (١) .. ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذي نَـزُّل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا ، كذلك تخرجون . والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون. لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ (٣) .. ﴿ الله الذي سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ ('' .. ﴿ والبُدْنَ جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون. لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم ، وبشر المحسنين ﴾ (٥) ..

⁽١) سورة الحج الآية : ٦٥.

⁽ ٢) سورة لقمان الآية : ٢٠.

⁽٣) سورة الزخرف الآيات : ١٠ - ١٣.

⁽٤) سورة الجائية الآيتان : ١٢، ١٣.

⁽ ٥) سورة الحج الآيتان : ٣٦، ٣٧.

إذ نظرنا إلى علاقة الإنسان بهذه الظواهر والقوى التى سخرها الله ، سبحانه وتعالى ، له .. فإننا سنجد لهذه العلاقة ، إذ كانت إسلامية ، ضوابط تميزها عن حالها إذا ما تحررت من ضوابط الإسلام ..

فتدمير ظواهر الطبيعة وقواها وكنوزها - بجعل قهر الإنسان للطبيعة هي فلسفة هذه العلاقة . والاخلال بعلاقات توازنها ، هو مما يتنافى مع المعنى الإسلامي لمصطلح التسخير - تسخير الله هذه الظواهر والقوى والكنوز للإنسان ..

فهذا «التسخير»: هو سَوْق وقهر من الله لهذه الظواهر والقوى .. ولكنه ، بالنسبة للإنسان ، يعنى «الارتفاق»! .. لقد سخرها الله لنا لنرتفق عليها وبها ، فتكون لنا مرفقا نرتفق به .. وإلا ، فألسنا مطالبين بالرفق بالحيوان ، الذي سخره لنا الله! .. وأليس قهر «المرفق» وتدميره مما يتنافى مع حكمة خلقه وتسخيره للإنسان ؟! ..

تلك هى «إسلامية علاقات الإنسان بظواهر الطبيعة وقواها» – الأرض – بطبقاتها .. وبحسارها .. وأنهارها .. وغاباتها .. وجبالها – والسموات – بطبقاتها .. وكواكبها .. ونجومها – وأقطارها .. وما بين السماء والأرض من الهواء ..

فبهذه العلاقة الإسلامية ، يحفظ الإنسان ، لا « سلامه » و « سلامته » فقط ، وإنما أيضا يحفظ سلام وسلامة « صفحات كتاب الكون » عندما يحافظ على « توازن واتزان وميزان » هذه « الصفحات » في هذا « الكتاب » ..

ونحن إذا تأملنا مدلولات مصطلح «الميزان» — وبعض مشتقاته ... فى المواطن التي جاءت بها فى القرآن الكريم، بسياق الحديث عن الطبيعة وقواها ومظاهرها وآياتها، ينكشف أمامنا خطر هذا المعنى لإسلامية علاقة الإنسان بهذه القوى والمظاهر والآيات التى أبدعها الله وسخرها لهذا الإنسان. ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون. وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقيين. وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقيدر معلوم. وأرسلنا الرياح لواقيح فأنزلنا من السيماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾ (١) .. فحافظوا في علاقاتكم بهذه الآيات الكونية على الميزان والتقدير الإلهى ..

﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ (") . ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ ("). فكما أننا مطالبون دينا بالحفاظ على « آيات كتاب الوحى » ، فنحن مطالبون ، دينا كذلك ، بالحفاظ على « تسوازن وميزان » « آيات كتاب الكون والوجود » ..

ومن منا لا يرى هذه الحقيقة ، حقيقة دعوة القرآن إلى «إسلامية العلاقة بين الإنسان وبين قوى الطبيعة وآيات الله في «كتاب الكون» .. يراها مجسّدة إذا هو تدبر الآيات الأولى من الرحمن : (الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ، الشمس والقمر

٢) سورة الحجر الإيات : ١٩ - ٢٢.

^{~)} سورة الشورى الآية: ١٧.

٣) سورة الحديد الآية: ٢٥.

بحسبان » والنجم والشجر يسجدان » والسماء رفعها ووضع الميزان » ألا تطغوا في الميزان » وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » والأرض وضعها للأنام » فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام » والحب ذو العصف والريحان » فبأى آلاء ربكما تكذبان » خلق الإنسان من صلصال كالفخار » وخلق الجان من مارج من نار » فبأى آلاء ربكما تكذبان » تكذبان » يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » فبأى ألاء ربكما تكذبان » رب المشرقين ورب المغربين » فبأى آلاء ربكما تكذبان » مرج البحرين يلتقيان » بينهما برزخ لا يبغيان » فبأى آلاء ربكما تكذبان » وله يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » فبأى آلاء ربكما تكذبان » وله يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » فبأى آلاء ربكما تكذبان » وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام » فبأى آلاء ربكما تكذبان » (۱)...

فهذه الآيات والآلاء ، في «كتاب الكون » التي عرضت آيات «كتاب الوحي » لعلاقات توازنها واتزانها .. مطلوب من الإنسان أن يحافظ على هنذا التوازن ، عندما يرافق هنذه الآيات ، ويرتفق بهذه النعم ، فيقيم السلام الإنساني مع آيات الوجود ، ويحقق السلامة له ولآيات هذا الوجود ..

إذن

وبعد هذا التعريف والضبط للمصطلح - « إسلامية المعرفة » ..

وبعد الإشارات الموجزة لأمثلة شاهدة على ما تعنيه هذه الإسلامية للمعرفة - في العلوم الإنسانية والاجتماعية .. وفي العلوم الطبيعية .. وفي علاقات الإنسان بظواهر وآيات «كتاب الوجود » ..

⁽١) سورة الرحمن الآيات : ١ - ٢٥.

يستبين لنا أن جوهر القضية .. وحقيقة الخلاف بين « إسلامية المعرفة » وبين « لا إسلاميتها » هو : الاعتراف بوجود علاقة بين « مصدر الوجود » - كمصدرين للمعرفة الإنسانية ؛ - أو نفى وجود هذه العلاقة ..

وبتعبير آخر: هل هناك سبيل آخر، غير «الحواس» و «تجاربها» – هو «سبيل الوحسى» – لإدراك وتصور وضبط معارف الإنسان فى الوجود – الطبيعى والإنسانى ؟ – أم أن «الحواس» و «تجاربها» هى مصدر «المعرفة الحقة » الوحيد، فى هذه العلوم. وما عدا ثمراتها، من «المعارف»، هو «ميتافيزيقا» و «خيال» ؟؟!..

وبصياغة أخرى للقضية : لقد أنزل الله – سبحانه وتعالى – على محمد بن عبد الله ، الله وحيه بالقرآن الكريم .. فكان «موضوعا» للعلوم «الشرعية» في حضارتنا الإسلامية .. ثم ولدت وتبلورت ونمت للمسلمين علومهم «المدنية .. البشرية .. الحضارية».. فهل كان «للوحي» وعلومه علاقات بعلوم «الحضارة المدنية»، وتأثيرات فيها، صبغتها – بدرجات متفاوتة – وضبطتها – على أنحاء مختلفة بصبغة الوحي وضوابط الشرع الإلهسي؟ .. أم أن العلاقة منفكة ، والصلات مقطوعة بين بناء «الإيمان الديني» و « بناء التمدن الحضاري»؟؟ ..

إن القائلين بـ«إسلامية المعرفة»، لا يجيبون على هـذا السؤال بـ«نعم». لأنهم لا يفصلون، في مصادر المعرفة، بين كتابي «الوحي» و «الوجود»..

بينما خصوم «إسلامية المعرفة » يجيبون على هذا السؤال بـــ « لا » لأنهم لا يرون للعلوم الحضارية - بل وحتى للعلوم الدينية - مصدرا سوى «الواقع» الذى تدركه «الحواس».. فلا شيء غير « الواقع » .. ولا سبيل للمعرفة سوى « الحواس »..

تلك هى القضية .. قضية «إسلامية المعرفة » .. فى حقيقتها .. وفى جوهرها..



الفصل الرابع

النموذج القرآني لإسلامية المعرفة

وكما سبقت إشارتنا، فإن «إسلامية المعرفة» - كمهمة ثقافية ورسالة فكرية - وكمنهج متميز في مناهج المعرفة الإنسانية - ليست جديدة، جدة هذا الشعار الذي يعبر به عنها الآن. فلقد عرفتها حضارتنا الإسلامية، واعتمدتها وتبنتها، كبديل إسلامي للمعرفة المادية والحسية -معرفة الدهريين والمشركين - الذين لم يروا للمعرفة مصدرا سوى «الواقع المحسوس»، ولم يتصوروا لهذه المعرفة أدوات وسبلا سوى «الحواس». اعتمدت حضارتنا هذا المنهج المتميز منذ ظهور الإسلام.

وشاهدنا على هذه الحقيقة.. هو كتاب الإسلام الأول: القرآن الكريم..

وفى اعتقادنا، أن بالإمكان – بل إنه لواجب – استخلاص منهج كامل، مدعم بالشواهد، لإسلامية المعرفة، من القرآن الكريم..

وإذا كان مقام هذا الكتاب لا يسمح بالإطالة فى عرض هذا النموذج القرآنى لمنهج إسلامية المعرفة، فإن بعضا من الإشارات لعدد من الآيات القرآنية التى عرضت لهذه القضية كافية لإقامة هذا الدليل، ولبيان مذهب القرآن فى هذا الموضوع..

فنحن عندما نتأمل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَفْلَمْ يَسْيِرُوا فَى الْأَرْضُ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبُ يَعْقُلُونَ بِهَا أَوْ آذانَ يُسْسَمَعُونَ بِهَا فَإِنْهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَلُ وَلَكُنْ تَعْمَى القلوبُ التي في الصدور ﴾(١).

نجد القرآن الكريم يحدثنا عن أن مثل الذين لا يرون للمعرفة سبلا غير «الحواس»، ولا لمصادرها مصدرا غير «الواقع المحسوس» – «كتاب الوجود» – هو كمثل الذين لا يرون في «القلب» غير «اللحمة الصنوبرية الشكل، المستقرة في التجويف الأيسر من الصدر» – وهذا هو التعريف «الحسى» لـ «القلب المادي»!.. فليس هناك – عند هؤلاء – للبصر والإدراك سبيل سوى «العين» – «الحاسة».

أما «المنهج الإيماني»، الذي يرى للمعرفة مصدرا ثانيا، غير «الوجود» – هو «الوحي» – ويرى في العوالم «عالما للغيب» – وليس فقط «عالم الشهادة» – ولسبل المعرفة أدوات أخرى، مع الحواس. أما هذا «المنهج الإيماني»، فإنه يرى في «القلب» ما هو أكثر من «اللحمة الصنوبرية الشكل». إنه يرى فيه، أيضا: «أداة التفكير والتعقل» و «اللطيفة الربانية» التي لها بالقلب الجسماني تعلق. وهي حقيقة الإنسان – التي يسميها الفلاسفة: النفس الناطقة!.. كما عرفه الإسلاميون، الذين فقهوا معنى حديث القرآن عن «عقل القلوب»، و «فقه القلوب»، و «الختم على القلوب».

⁽١) سورة الحج: الآية ٤٦.

ونحن عندما نتأمل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ الم. غُلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سَيغْلِبُون. في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون. بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم. وَعْدّ الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ (١).

عندما نتأمل هذه الآيات ندرك «بالحواس» وحقائق «الوجود» واقع الروم الذين غلبهم الفرس، في أدنى مكان على سطح الكرة الأرضية، على شاطئ البحر الميت.

لكننا ندرك أيضا، ما هو فوق ذلك «الوجود» «المحسوس».. ندرك «بنبأ الغيب» في «كتاب الوحي» أن الروم هؤلاء الذيب غُلبوا – سَيَغْلِبُون الفرسَ – في بضع سنين.. وهذا هو النبأ – غير المحسوس – الذي غدا، بعد بضع سنين من نزول هذه الآيات، «محسوسا» في كتاب «الوجود».

فالوقوف عند سبل وثمرات الطريق الأول – الحسى – فى العلم والمعرفة فقط، يقف بصاحبه عند «ظاهر الحياة الدنيا».. عند معطيات «الوجود» وحدها.. عند عالم «الشهادة» – الدنيوى – وحده..

بينما الصدور في المعرفة من المصدرين - «الوحي».. و«الوجود» - كليهما، يضيف معارف لا يفصح عنها «كتاب الوجود» بمفرده،

⁽١) سورة الروم الآيات ١ – ٧.

ولا تدركها «الحواس» وحدها – كما ينفى الغفلة الإنسانية عن «الغيب» – الآخرة – الذى تفرد به وانفرد «الوحى» – نبأ السماء العظيم!..

● وإذا نحن تأملنا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَفْرَأَيْتُ مِنْ اتَحْدُ الله هواه وأَصْلُه الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله، أفلا تذكرون. وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون. وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾('').

إذا نحن تأملنا هذه الآيات، وجدنا نموذج ذلك الذى:

عبد الدنيا وأهواءها.. فألغى ما وراء «المادة والواقع المحسوس».. ووقف بعلمه دون الإلهى، الآتى بواسطة «الوحى»، أى وقف به في إطار العلم الدنيوى وحده..

وحال بين سمعه وقلبه وبصره وبين تجاوز الواقع المحسوس..

فإذا جاءته آیات الله، غیر المادیة، وبراهینه، التی لا تقف فی البرهنة عند الحواس وحدها، ظلم منصرفا عنها، مستمسكا بالمحسوس وحده، كمصدر وحید للمعرفة، وبالحواس فقط، كسبل وحیدة للإدراك، ولذلك طلب أن ناتی له بالموتی من آبائه لیری

⁽١) سورة الجاثية: الآيات ٢٣ _ ٢٥.

منهم ويسمع - بالبصر والسمع الحسيين - نبأ البعث وخبر النشور!.. فهو يريد أن يعرف «بالحواس» معارف «العالم غير المحسوس».

فمعرفة هؤلاء: حسية - دهرية - لا دينية - غير إسلامية - لا ترقى إلى «العلم» - الذى هو إدراك الشيء على ما هو به - وإنما مبلغها أن تقف عند «الظن» - الذى لا يغنى من الحق شيئا، في بعض الأحيان.. ولا يغنى من الحق كل شيء، في أحيان أخرى..

● وعندما نتدبر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال: أنّى يَحْيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال: كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم، قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾(١).

عندما نتدبر هذه الآیات نعلم أن هذا الذی مر علی القریة الخاویة علی عروشها، لم یدرك إلا «ما تحسه الحواس».. فلم یـر مـن هـذه القریة إلا «الواقع المادی المحسوس»، والآنی.. ولم یتصور إمكان عمل «دلیل: قدرة الذی بدأ الخلـق علی أن یعیده مـرة أخـری»..

⁽١) سورة البقرة: الآية ٢٥٩.

فأقام له الله سبحانه وتعالى، البرهان «المحسوس» من جنس الذى وقفت عنده مداركه!. فآمن وقال: أعلم أن الله على كل شيء قدير..

• وعندما نتدبر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم. قبل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم «الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون » أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم، بلى وهو الخلاق العليم﴾(١).

عندما نتدبر هذه الآيات نراها تعرض لحال ذلك الذى لم يستدل بالمصنوع المادى البديع على وجود الصانع المبدع، المفارق للمادة.. والذى غفل عن إعمال «دليل: قدرة الذى بدأ الخلق على أن يعيده» والإعادة – حتى فى المحسوس – أيسر من الاختراع إبتداء.. فوقفت به مداركه عند «ما تحسه الحواس» من «الواقع المحسوس»، فلم ير مما بعد الموت سوى الأجساد التى تحولت عظاما رميما.. ولو أدرك معنى ودلالة التحولات الدائمة فى المخلوقات ومنها تحول الشجر الأخضر – الحى – إلى وقود – المناهدة فى ميت – لأدرك قدرة القادر على إخراج الحى من الميت وإخراج المناهدي والحياة والموت ليسا محسوسًا تدركهما الحواس..

⁽١) سورة يس: الآيات ٧٧ – ٨١.

ولكنه وقف، في مصادر المعرفة وأدواتها، عند «المحسوس» و«الحواس»، لا يتعداهما .

• وعندما نتفكر فى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا. وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدًا قل: كونوا حجارة أو حديدا. أو خلقا مما يكبر فى صدوركم، فسيقولون من يعيدنا قل: الذى فطركم أول مرة، فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هوقل عسى أن يكون قريبا! ﴾(١)

وكذلك قوله سبحانه: ﴿ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا ﴾(٢).

عندما نتفكر في هذه الآيات، نجد كيف أن الذين لم يشهدوا — بالحواس — خلق أنفسهم أما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدًا (٣٠٠٠). هؤلاء الذين لم يشهدوا، بالحواس خلق أنفسهم ينكرون مالا يستطيعون أن يشهدوه، بحواسهم من البعث والنشور. إنهم لم يصدقوا بإمكان

⁽١) سورة الإسراء. الآيات ٤٨ - ١٥.

⁽٢) سورة الإسراء: الآيتان ٩٨ - ٩٩.

⁽٣) سورة الكهف: الآية ٥١.

إعادتهم بعد الموت، لأنهم لم يدركوا ولم يتصـوروا معرفـة غـير التـى يحصلونها بالحواس..

● وعندما نتدبر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون واليعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ويهات هيهات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين وان هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين (١٠٠٠).

عندما نتدبر هذه الآيات نرى كيف أفضى المنهج «المادى - الدهرى» بأصحابه إلى الإصرار على الكفر الصريح..

لقد أغلظ الترف مداركهم فلم يدركوا سوى ظاهر مارأت عيونهم، فكذبوا رسولهم عندما لم يدركوا فيه آيات صدق النبوة والرسالة.. ووقفت بهم حواسهم عند إدراك ما هو محسوس وحده، فلم يدركوا منه غير ما ترى الحواس من أنه بشر يأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون!.. وكذبوا بالبعث عندما لم يستخدموا في تحصيل معارفه وإمكانه «دليل: قدرة الذي خلق إبتداء على الإعادة مرة أخرى».. فلم تَعْدُ حواسهم من حال ما بعد الموت الأجساد التي تحولت وتتحول إلى تراب وعظام..

⁽١) سورة المؤمنون: الآيات ٣٣ – ٣٨.

• وعندما نتدبر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبضار والأفئدة، قليلا ما تشكرون ، وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون ، وهو الذى يُحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار، أفلا تعقلون ، بل قالوا مثل ما قال الأولون ، قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ (١).

عندما نتدبر هذه الآيات البينات، نرى:

- كيف أشارت إلى أن الله سبحانه وتعالى إنما خلق لهم من أدوات المعرفة ما هي أكثر من الحواس.. فلقد خلق لهم «الأفئدة» التي تفقه وتعقل.. والتي هي بمثابة اللب والجوهر من الإنسان..

وخلق لهم من أدوات المعرفة أيضا، الحواس.. مثل «السمع والأبصار».

- ثم حدثتهم الآيات القرآنية - آيات «كتاب الوحى» عن ما خلق الله سبحانه وتعالى من آيات «كتاب الكون»: خَلْقُهم فى الأرض وبَثُهم فى أنحائها.. وحشرهم إلى خالقهم يـوم الديـن.. والإحياء.. والإماتة.. واختلاف الليل والنهار.. وتعاقبهما..

- لكنهم لما لم يستخدموا مسن أدوات المعرفة سوى الأدوات الحسية، قصرت بهم معرفتهم عن إدراك مالا يُدرك بالحواس. لقد عطلوا الأفئدة، والأدوات والسبل التي تدرك ما وراء «المادة»

⁽١) سورة المؤمنون: الآيات ٧٨ – ٨٣.

و «الواقع». فوقفت معارفهم عند الواقع المحسوس لا تتعداه. ومن هنا كان قولهم بما قال به «الأولون»، الذين أنكروا البعث، عندما لم يروا في الإنسان بعد الموت غير «التراب والعظام».

ولما لم يستخدموا غير حواسهم.. ولم يدركوا غير المحسوس.. وأهملوا المصدر الآخر من مصدرى المعرفة – «كتاب الوحى» – ونبأ السماء – والأدلة السمعية – حكموا على معارف هذا المصدر الذى أهملوه بأنها: (أساطير الأولين).

لقد قالوا ما يقوله أحفادهم – الوضعيون – المحدثون: إن المعرفة الحقة هي ما تدركه الحواس، بالتجربة، من معارف «الواقع» وعلومه.. وما عداها فهي ميتافيزيقا وخيالات..

• وأخيرا.. وليس آخرا.. فنحن عندما نتفكر فى قول الله، سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا رَأُوا آية يستسخرون * وقالوا إن هذا إلا سحر مبين * أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون ﴾ (١).

عندما نتفكر في هذه الآيات، نرى كيف عرض القرآن لنقض منهج المعرفة المادية الحسية، ذلك الذي وقف بمصادر المعرفة عند «الواقع المحسوس»، وبأدواتها عند «الحواس». ذلك المنهج الذي جعل أصحابه لا يدركون من الآيات ما وراء الذي تدركه الحواس، فهم يبالغون في السخرية من هذه الآيات غير المحسوسة.. حتى لقد

⁽١) سورة الصافات. الآيات ١٤ - ١٧.

حسبوها - لإهمالهم أدوات إدراكها - مجرد سحر خادع للحواس!.. وكيف أيضا، لم يروا فيما بعد الموت إلا ما تدركه الحواس من «واقع» تحول الأجساد إلى تراب وعظام!..

هكذا.. وعلى هذا النحو وأمثاله، عرض القرآن الكريم لكثير من الأمثال التى ضربها شواهد على قصور «المعرفة الحسية» وحدها عن أن تحدرك ما يجب أن يدركه الإنسان.. وعجزها عن أن تتصور حقائق «عالم الغيب» فتؤمن به.. أو أن تحيط بما فى «كتاب الوحى» ونبأ السماء من حقائق لا تدركها الحواس وحدها..

عرض القرآن لهذه الأمثال، إقامة لمعالم المنهج المتكامل فى المعرفة.. ذلك الذى يزامل بين «كتاب الوحى» و «كتاب الوجود»، مصدرين للمعرفة الإنسانية.. ويعتمد كل سبل الإدراك والتصور، تحصيلا للمعارف والعلوم، على اختلاف مصادرها.

فهو المنهج الذى يقيم العلاقة بين «الوحــى» و «الوجـود»، بين «الشرعى» و «المدنى»، منهج «إسلامية المعرفة»

لقد كان القرآن الكريم - وهو كتاب المسلمين الأول - والذى خرجت حضارتهم، بل وأمتهم من بين دفتيه! كان ولا يزال المصدر الأول لصياغة هذا المنهج الإسلامي المتميز في المعرفة..

• فهو يطلب منا أن ندرك ونتدبر آيات «كتاب الوحى» المقروء.. «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها أنه التدبر هنا لا يدركه الإنسان بمجرد الحواس.. فلا بصر القارئ ولا سمع السامع

⁽١) سورة محمد: الآية ٢٤.

بمحقق لهذا التدبر المطلوب. وإنما هو القلب إذا أزيلت من على أبوابه الأقفال!.. (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب (().. وهنا أيضا يكون «اللب» – القلب – العقل – أداة التدبر والتذكر في آيات هذا الكتاب الكريم.

• وهو − القرآن الكريم − يطلب منا كذلك النظر والتفكر فى آيات «كتاب الكون»، المنظور.. ﴿ أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده، إن ذلك على الله يسير » قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق، ثم الله ينشىء النشأة الآخرة، إن الله على كل شىء قدير ﴾ (() . ﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحسى، ذلكم الله فأنًى تؤفكون. فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا، ذلك تقدير العزيز العليم. وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون. وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ (").

﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا

⁽١) سورة ص: الآية ٢٩.

⁽٢) سورة العنكبوت: الآيتان ١٩، ٢٠.

⁽٣) سورة الأنعام: ٩٥ – ٩٩.

عذاب النار ﴿ `` ﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى، وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾ `` ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ ``

بل ويعلمنا القرآن الكريم أن كلا من هذين المصدرين للمعرفة –
 يعلمنا أن كليهما «تنزيل» إلهى.. وإرادة إلهية.. وتدبير إلهى..

فإذا كان القرآن الكريم - «كتاب الوحى» - هو البلاغ الإلهى.. وإذا كانت السنة النبوية، الثابتة الصحيحة، هى البيان النبوى لهذا البلاغ الإلهى.. فنحن قد عرفنا وتلقينا هذا المصدر للمعرفة من النبوة والرسالة المعصومة..

على حين نحن نتلقى علوم الكون والإنسان بواسطة «الحكمة».. التى هى – وفق التعريف النبوى لها – : «الإصابة فى غيير النبوة» (1) – ووفق المعنى اللغوى لها – : «معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم» (0)..

فنحن نتلقى من الرسول الله «كتاب الوحى».. ونستخلص «بالحكمة» علوم الكون.. والقرآن يعلمنا أن كلا منهما – «الكتاب»

⁽١) سورة آل عمران: الآية ١٩١.

⁽٢) سورة الرؤم: الآية ٨.

⁽٣) سورة النحل: الآية ٤٤.

⁽٤) «والحكمة . الإصابة في غير النبوة» — رواه البخاري .

⁽٥) ابن منظور (لسان العرب) مطبعة دار المعارف - القاهرة

و «الحكمة» — من عند الله، مصدران للمعرفة الإنسانية، وجناحان لنهج واحد في استخلاص واستنباط وإدراك وتصور المعارف والعلوم.. (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون (().. واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به، واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم (()).

بل إن اعتبار «كتاب الوحى» – مع «كتاب الوجود» – مصدرا للمعرفة.. لا تقف ثمراته، فقط، عند إضافة «معارف عالم الغيب» إلى «معارف عالم الشهادة» – التى نستمدها من «كتاب الوجود» – وإنما يضيف هذا الموقف إلى المعارف الإنسانية، عن «عالم الشهادة» إضافات كثيرة وعظيمة مصدرها «كتاب الوحى» أيضا!.. فكتاب الوحى، الذى انفرد بنبأ عالم الغيب، قد عرضت آياته للكثير من «السنن» و «القوانين» الحاكمة والهادية للإنسان الناظر فى كتاب الوجود..

وإذا كانت «السنن الخارقة للعادة» — وهي خارقة «للعادة — المعتادة».. وليست خارقة للقوانين المعقولة؟! — قد اختص الله سبحانه وتعالى بها الذين اصطفاهم من الأنبياء والرسل!.. إقامة للحجة، وتمييزا للحق عن الباطل.. فإن «السنن الجارية» هي «القوانين» التي أودعها الله، سبحانه وتعالى في الوجود الطبيعي

⁽١) سورة البقرة: الآية ١٥١.

⁽٢) سورة البقرة: الآية ٢٣١.

والإنساني، ودعا أهل العلم إلى اكتشافها وإلى إعمالها، عندما أودع في «كتاب الوحي» النماذج والأمثال لها وعليها.. فكل أهل المعرفة مدعوون إلى تأملها، وإلى اتخاذها «سبلا إلهية – شرعية» للمعارف «المدنية» في عالمي الطبيعة والإنسان..

وإذا كانت إشارات قد سبقت إلى بعض من هذه «السنن» التى عرض لها القرآن الكريم فى ظواهر الطبيعة.. وفى التوازن بينها.. فإن إشارات إلى بعض من هذه «السنن» الإلهية فى الاجتماع الإنسانى، كفيلة باستكمال صورة المعرفة القرآنية فى عالم الشهادة، وكتاب الوجود..

● فمن القرآن الكريم نتعلم سنة الاقتران الدائم بين «الدين» والرسالات الإلهية، وبين «الحضارة» التي تمثل طور الاستقرار للإنسان.. الأمر الذي يكشف لنا عن البعد الحضارى للدين والتدين.. ففي «القرية» – مكان القرار والاستقرار – تتوافر إمكانات البناء والتراكم في المعارف النظرية، التي تتجسد تطبيقاتها في «التمدن المدنى» – وهما جناحا الحضارة – على النحو الذي لا يتأتى في «البادية»، بسبب «الترحال»!..

وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها، والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون (۱).

⁽١) سورة الأنعام: الآية ٩٢.

فالرسول الخاتم، بعث بالكتاب الخالد في أم القرى.. وكانت هجرته إلى ثانية القرى.. ولقد مثلت الهجرة في عهد النبوة، إنجازا عظيما من إنجازات «التحضر»، نقل «البدو» إلى «الحضر»، واستبدال «الحضارة بالبداوة».. حتى لقد اعتبرت العودة إلى «البادية» ردة عن هذه «الحضارة» التى أنجزها الإسلام (۱)..

وكذلك كانت هده «السنة» - سينة اقتران «الدين» بر «الحاضرة» - والبعد الحضارى - عبر تاريخ كل الرسالات وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون (").

فهى «سنة» من «سنن الاجتماعي الديني» نتعلمها من القرآن الكريم.

● ومن القرآن الكريم نتعلم «سنة الارتباط – إرتباط المقدمة بالنتيجة – بين الظلم والترف والفساد والبغى وبين التدهور والهلك للاجتماع الإنساني والحضارات»..

وقالوا: إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا، أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون. وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين. وما كان

⁽۱) في الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم والنسائي «أرتددت على عقبيك» تَعَرَّبت؟!».

⁽٢) سورة القصص: الآية ٥٩.

ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون (١٠٠٠).

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرَنا مترفيها ففسقوا قيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ (٢).

(واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين، وما كنان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون (""، (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء، إنه بعباده خبير بصير) (ا)

فإفضاء الترف والظلم والفساد والبغى إلى انهيار وهلاك الحضارات، سنة وقانون من سنن وقوانين الاجتماع الإنساني، نتعلمها من القرآن الكريم..

● ومن القرآن الكريم نعرف سنة ارتباط الانفراد - الأثرة والاستئثار
 - مطلق الانفراد - كمقدمة - بالطغيان - كل ومطلق الطغيان..

(كلا إن الإنسان ليطغى « أن رآه استغنى) (أه).

فكل استئثار بلون أو ميدان من ميادين «السلطان» – المالى.. أو الإدارى.. أو السياسى.. أو في الرعاية الأسرية – هو مقدمة مفضية حتما إلى الطغيان..

 ⁽١) سورة القصص: الآيات ٧٥ – ٩٥.

⁽٢) سورة الإسراء: الآية ١٦.

⁽٣) سورة هود: الآيتان ١١٦، ١١٧.

⁽٤) سورة الشورى: الآية ٢٧.

⁽٥) سورة العلق: الآيتان ٦، ٧.

• وكما يعلمنا القرآن الكريم أن وحدانية الخالق هي علة إنتفاء الفساد عن التدبير والرعاية الإلهية في عوالم المخلوقات، الأرضية والسماوية (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) (۱). نتعلم منه كذلك سنة وقانون «التعددية» – والتوازن – في جميع عوالم وأما للخلوقات..

فغير تعددية وتوازن ظواهر الخلق في عالم الطبيعة.. هناك التعددية والتوازن في عوالم الاجتماع الإنساني..

تعددية وتوازن: الألسن والألوان والقوميات والحضارات، في إطار وحدة الإنسانية ووحدة الخلق..

وتعددية الشرائع الإلهية، بتعدد أمم الرسالات، في إطار الدين الإلهي الواحد وتعددية وتوازن: مذاهب «الفروع» في إطار وحدة «الأصول» – في العقيدة والشريعة..

وتعددية وتوازن: الأفراد.. والطبقات في إطار كل أمة من الأمم.. على نحو ما تتعدد الأعضاء في الجسد الواحد..

(یا أیها الناس إنا خلقناکم من ذکر وأنثی وجعلناکم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أکرمکم عند الله أتقاکم، إن الله علیمم خبیر)(۱).

⁽١) سورة الأنبياء: الآية ٢٢

⁽٢) سورة الحجرات: الآية ١٣.

وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون (٢٠٠٠).

ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم، وتمت كلمة ربك لأمْلأنَ جهنم من الجنة والناس أجمعين (").

● وإذا كان «التوازن» هو الذى يحفظ على الفرقاء المتعددين «الوحدة»، ويحول بينهم وبين «الصراع» الذى ينفى «التعددية»، عندما ينفى طرف بقية الأطراف، بصرعهم وإخلاء «الظاهرة – والساحة» منهم..

وإذا كان «الخلال» - نقيض «التوازن» - يودى إلى ذات النتيجة: استبداد طرف بكل المقدرات والثمرات، دون بقيسة الأطراف، على النحو الذي يلغى «التعددية»، عمليا،.. فإن القرآن الكريم يعلمنا «سنة» و «حكم»: أن «الدفع» - الذي هو حراك

⁽١) سورة الروم: الآية ٢٢.

⁽٢) سورة المائدة: الآية ٤٨.

⁽٣) سورة هود: الآيتان ١١٨، ١١٩.

اجتماعى – وليبس «الصراع» الاجتماعى – هو سنة الله وحكمه وسبيله لإعادة «التوازن» إلى مقامه إذا ما حل محله «الخلل» فى ظاهرة من ظواهر الاجتماع.. ف «الدفع»: تحويل لمواقع الفرقاء، فى إطار «التعددية»، وليس نفيا من فريق لغيره من الفرقاء.

فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء، ولولا دفع الله النباس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين (۱).

أَذِن للذين يُقاتَلُون بأنهم ظُلُموا، وإن الله على نصرهم لقدير ها الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوى عزيز (۱).

(إدفع بالتى هى أحسن السيئة، نحن أعلم بما يصفون) (٢٠). ولا تستوى الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتى هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) (٤٠).

تلك إشارات إلى بعض من سنن الاجتماع الإنساني، التي نجد كتاب الوحى – القرآن الكريم – قد مثل فيها مصدرا للمعرفة في

⁽١) سورة البقرة: الآية ٢٥١.

⁽٢) سورة الحج الآيتان ٣٩، ٤٠.

⁽٣) سورة المؤمنون الآية ٩٦.

⁽٤) سورة فصلت: الآية ٣٤.

عالم الشهادة.. تقوم دليلا على تجاوزه لسبل الإنباء عن عالم الغيب، الذي لا تدركه تجارب الحواس..

000

فكما مثل «الوحى» مصدرا لمعرفة العديد من «سنن» الاجتماع الإنسانى، ومعارف عالم الشهادة - كذلك كانت السنة النبوية - التى هى «البيان النبوى للوحى الإلهى» - فمنها، هى الأجرى نستلهم المعرفة بالعديد من «سنن» هذا الاجتماع..

● فاقتران «العصبية».. والشوكة.. والمنعة القومية - بالنسبة للرسول - أى رسول - اقترانها بالنجاح الذى تحرزه رسالته فى مواجهة الخصوم المنكرين.. هى سنة من سنن «الاجتماع الدينى» تنسحب إلى سنن «الاجتماع السياسى- نتعلمها من سنة رسول الله الله ...

ففى التفسير ألنبوى والبيان الرسالي لقول الله سبحانه وتعالى عن نوح وقومه: (لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد)(١).

يقول الرسول ﷺ «قد كان (نوح) يأوى إلى ركن شديد (الملائكة الذين حضروه) – لكنه ~ (أى نوح) عَنَى عشيرته، فما بعيث الله،

⁽١) سورة هود: الآية ٨٠.

عز وجل بعده نبيا إلا بعثه في ذروة قومه.. وإلا في منعة من قومه!»(١).

ودور «العصبية الهاشمية» – في الحقبة المكية من الدعوة الإسلامية – دورها في الانتصار للدعوة، بحماية النبي، حتى وكثير من أهل تلك العصبية على الشرك – مثل أبي طالب. والعباس بن عبد المطلب. وحلفاء المؤمنين إبان المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية في «شعب بني هاشم» – شاهد على هذه السنة من سنن الله في الدعوات والرسالات.

● واقتران إقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — وهى فريضة اجتماعية — كفائية — تعنى عموم المشاركة الإيجابية من المسلم فى شئون الاجتماع الإسلامى — اقتران إقامة هذه الفريضة بتقدم الاجتماع وإزدهاره.. واقتران إهمالها والنكوص عنها بتدهور الاجتماع وهلاك نظامه وسيادة المظالم والفوضى فيه.. سنة من سنن الله فى هذا الاجتماع، يحدثنا عنها البيان النبوى، فى حديث رسول الله الله الذى يقول فيه: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرته (٢) على الحق أطرا، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم تدعون فلا يستجاب لكم»(٣).

⁽١) رواه الإمام أحمد.

⁽٢) أى تحملونه على الحق قسرا.

⁽٣) رواه الترمذى وأبو داود وابن ماجة والإمام أحمد.

فمقاومة الجور والظلم هي التي تحفظ على الاجتماع الإنساني المعنى الحق للحياة. «إذا رأيتم أمتى تهاب الظالم أن تقول له: إنك أنت ظالم! فقد تُودِع منهم »(١).

● وهذه السنة وثيقة الصلة – بل عضويتها – بسنة أخرى، نتعلمها من أحاديث رسول الله ﷺ التي تشير إلى «قانون تعاقب العدل والجور، والخير والشر في الاجتماع الإنساني»، وصلة هذا التعاقب بإقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر..

يتحدث الرسول على عن سنة وقانون تعاقب العدل والجور على الاجتماع الإنسانى فيقول: «لا يلبث الجور بعدى إلا قليلا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شىء ذهب من العدل مثله، حتى يولد فى الجور من لا يعرف غيره! ثم يأتى الله - تبارك وتعالى - بالعدل، فكلما جاء من العدل شىء ذهب من الجور مثله، حتى يولد فى العدل من لا يعرف غيره»(٢).

قال: نعم!

فسأله حذيفة: فبمن نعتصم؟!

⁽١) رواه الإمام أحمد.

⁽٢) رواه الإمام أحمد.

قال: بالسيف»(١).

وهذه السنن وثيقة الصلة بسينة أخرى نتعلمها من حديث رسول الله هي، الذى يجعل القوة، قبوة الاجتماع الإنساني، قرين الفداء والجهاد والاستشهاد، حتى وإن قل تعداد الأمة.. بينما يقترن الوهن والذل بالجبن عن الفداء والجهاد والاستشهاد، حتى وإن كثرت الأعداد؟!.. فرسول الله هي يتحدث عن هذه السنة في الحديث الذى دار بينه وبين صحابته.. والذى بدأه فقال لهم:

«يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تتداعى الأكلة على قصعتها »

- فقالوا: يا رسول الله، أمن قَلَّة بنا يومئذ؟!
- قال: أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل! ينتزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن!
 - فقالوا: وما الوهن؟!.
 - قال: حب الحياة، وكراهية الموت (٢).
- وإلى جانب من هذه الحقيقة تشير الأحاديث النبوية التى تتحدث عن سنة اقتران الجهاد بالعزة، وارتباط النكوص عنه بالإذلال.. فالركون إلى «سلم» لا يحميه «جهاد» سبيل إلى ضياع

⁽١) رواه أبو داود والإمام أحمد.

⁽٢) رواه أبو داود والإمام أحمد.

«المسلم» الحقيقى من الاجتماع الإنسانى؟!.. «إذا تبايعتم بالنسيئة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذُلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم»(١).

«فالحياة المدنية» تحميها من الذل «الروح الجهادية»، والاقتران قائم بين الدين – والجهاد ذروة سنامه! (٢) – وبين عزة هذه الحياة... كما أن الذل قرين «الدعة» التي لا يحميها «الجهاد»..

وذلك لأن ختم النبوة والرسالة قد جعل استمرارية هذه الأمة إلى يوم الدين الحقيقة المترتبة على خلود الإسلام حتى يوم الدين! .. فكانت سنة القيام الدائم لفريق من هذه الأمة على إعلاء أمر الله. «لا تزال عصابة من أمتى يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»(1).

وهذه «الجماعة - الأمة» هي التي عصمها الله من الاجتماع والإجماع على ضلالة»(٥).

⁽١) رواه أبو داود والإمام أحمد.

⁽٢) من حديث رسول الله، الذي يرويه معاذ بن جبل - أخرجه الـترمذي وابـن ماجة والإمام أحمد

⁽٣) روأه مسلم.

⁽٤) رواه مسلم.

⁽٥) رواه ابن ماجة

فحفظ الدين – الذي وعد الله به – ﴿إِنَا نَحَنُ نَزَلْنَا الذَكَرِ وَإِنَا لَهُ لَمُ الْخُلُونِ ﴾ () - يقتضى دوام إقامته. أي دوام أمته. وذلك لا يتأتى دون دوام الجهاد مع أعداء الإسلام والمسلمين. «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر أو الشجر فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله» ()

هكذا.. ومن خلال هدده الإشارات إلى عدد من «السنن» و «القوانين»، التى جاءت فى القرآن الكريم.. وفى الحديث النبوى الشريف.. رأينا كيف كان «كتاب الوحى» – بلاغه القرآنى.. وبيانه النبوى مصدرا للمعرفة، فى عالم الشهادة، والاجتماع الإنسانى.. إلى جانب كونه المصدر لمعارف الإنسان عن عالم الغيب الذى لا تستقل بإدراكه العقول، ولا تخضع معارفه للحس والتجريب.

وأخيرا.. فمن منا لا يتأمل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾ (٢). ولا يرى ويدرك – على وجه اليقين – كيف جعل القرآن الكريم سبل العلم والمعرفة متعدية للسبل الحسية. فليس «السمع»

⁽١) سورة الحجر. الآية ٩.

⁽٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى والإمام أحمد

⁽٣) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

و «البصر» - الحواس - وحدها - هي سبل المعرفة. وإنما الفؤاد - مع الحواس - (كل أولئك كان عنه) عن العلم والمعرفة (مسئولا).

تلك هى إسلامية المعرفة.. المنهج القرآنى فى المعرفة.. وعلى هذا النحو واجه به القرآن الكريم - وبيانه النبوى - المنهج الحسى فى المعرفة، ذلك الذى كان سائدا فى دوائر المشركين والدهريين..

وعلى هذا النحو قام «كتاب الوحى» - في هذا المنهج - مصدرا للمعرفة في عالم الغيب والشهادة جميعا.. فزاملت معارفة، وكشفت سننه عن كثير من السنن الجارية في آيات «كتاب الوجود»، سيان منها ما كان خاصا بعلوم الطبيعة التجريبية، أو بظواهر وعلوم الاجتماع الإنساني. فهو تميز.. وهي إضافات.. تحققها إسلامية المعرفة في هذه الميادين.

000

الفصل الااس

وبعد الفتوحات الإسلامية

ولم يكد ينتهى القرن الهجرى الأول، حتى كانت الفتوحات الإسلامية قد وصلت بحدود الدولة الإسلامية ما بين الأندلس والصين. وأصبحت كل الديانات، السماوية والوضعية، وكل الملل والنحل، وجميع المؤسسات اللاهوتية والمدارس الفكرية والفلسفية، قائمة ونشطة في دولة الإسلام.. فالفتح قد أقام الدولة، لكن المسلمين ظلوا أقلية عددية في رعية هذه الدولة لعدة قرون (۱).. إذ (لا إكراه في الدين) (۱).. وإذا كان للفتح أن يقيم «الدولة»، فليس له من سبيل إلى إقامة الإيمان «بالدين»، لأن الإيمان: تصديق قلبي، يبلغ مرتبة اليقين.. والإكراه قد يثمر «نفاقا»، لكنه لا يثمر «إيمانا» بحال من الأحوال.

وفى خضم التدافع الفكرى الذى شاع وازدهر بين الإسلام وبين الديانات والنحل والفلسفات غير الإسلامية، تخلقت للحضارة الإسلامية

⁽۱) انظر في الانتشار التدريجي للإسلام: هارى. وهازارد (أطلس التاريخ الإسلامي) ص ٥، ٦ ترجمة إبراهيم زكى خورشيد. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م. و د. حسين مؤنس (أطلس تاريخ الإسلام) ص ٣٣ طبعة القاهرة سسنة ١٩٨٧ م. وأرنولد سير توماس. (الدعسوة إلى الإسلام، ص ٩٨، ١٣٣، ١٣٥، ١٥٣، ١٥٣، ١٥٣، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحسراوي. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م وآدم متز (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى) المجلد الأول ص٥٥، ٨٤، ١٠٥ ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريدة طبعة بيروت سنة الأول

⁽٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

علوم ومذاهب كانت بعض أدواتها في الحوار الفكرى والتدافع المذهبي مع هذه الديانات والفلسفات. تخلقت العقلانية الإسلامية، التي أعملت العقل في النقل، وحكمت العقل بالنقل. فكانت نموذجا للمعرفة الإسلامية التي أرسى القرآن قواعدها – وتخلق علم آداب البحث والمناظرة، الذي جعل حتى من المساجد، أحيانا، ميادين تدافع فكرى بين علماء الإسلام وبين أحبار وعلماء الديانات والفلسفات الأخرى.. وكان ذلك امتدادا وتطويرًا لمنهج النبوة ولدور مسجد المدينة المنورة، على عهد الرسول شخص.

ولقد واجه المسلمون، ضمن ما واجهوا، خلال هذا التدافع الفكرى، مذاهب المعرفة غير الإسلامية، تلك التسى افتقدت توازن معرفتنا الإسلامية.. واجهوا:

- العقلانية اليونانية ، التى لم تعرف الوحى والنقل ، فلم تعترف بهما.. فقامت معرفتها على ساق واحدة ، هى البرهان العقلى.. حتى لقد اقتربت كثيرا من نموذج المعرفة الحسية.
- والعرفان الغنوصى الباطنى، الذى اعتمـد «الحـدس» و «الـذوق»، فأهمل «الواقع» وغض من شأن «العقل» و «النقل» جميعا..
- وواجهوا «المعرفة الحسية» لمذاهب الديانات الوضعية، التي كانت منتشرة في البلاد الآسيوية التي دخلت في دولة الإسلام أو اتصل أهلها بالإسلام والمسلمين..

وأمام هذه «المقالات» غير الإسلامية، وفي مواجهتها، وفي خضم التدافع الفكرى معها، شهدت حضارتنا فن التأليف في (مقالات

الإسلاميين). ورأينا، ونحن نراجع عناوين مؤلفات سلفنا في تلك القرون تلك القرون تلك الثروة العظيمة من المؤلفات التي تخصصت في الرد على «مقالات» أهل تلك الديانات والمذاهب والنحل والفلسفات..

وعلى سبيل المثال:

فالذين أرّخوا لقائد المعتزلة: أبو حذيفة واصل بن عطاء (٨٠هـ- الثلاثين من عمره حتى ١٣١هـ/ ١٩٩ م-٧٤٨م) يقولون إنه لم يبلغ الثلاثين من عمره حتى كان قد فرغ من الرد على كل المخالفين!.. ومن عناوين الكتب التى ألفها: (كتاب الألف مسألة). وجميعها في الرد على مذهب «المانوية» الفارسية.

ومما تذكره كتب هذا الفن.. فن (مقالات الإسلاميين) من وقائع التدافع الفكرى بين «إسلامية المعرفة»، التي بلورها الإسلام، وبين مذهب الديانات الوضعية – غير السماوية – في «المعرفة الحسية»، تلك الحوارات التي دارت بين علماء الإسلام وبين علماء فرقة «السُّمنِيَّة» – وهي مذهب من مذاهب الديانة الوضعية الهندية.. ينكر أهله الوحي والنبوة والرسالة.. ويقولون: «لا طريق للعلم سوى الحس.»(۱).

كان «السمنية» يرون أن المعرفة والعلم هما ثمرة للواقع المحسوس وحده.. ويرون الحواس الخمسة وحدها سبل المعرفة الحقة.. وما عدا ذلك خيال وبتعبيراتهم في ذلك العصر: «مجهول»! - أى غير «معلوم».. أى ليس من المعارف والعلوم، التي يصدق عليها هذا الاصطلاح.

⁽١) التهانوى (كشاف اصطلاحات الفنون) – طبعة الهند سنة ١٨٩٢ م

ولقد دارت بين بعض علما، «السمنية» وبين واحد من علما، المسلمين، وزعيم لإحدى الفرق الإسلامية – وهو الجمهم بن صفوان (١٢٨ هـ/ ٧٤٥م) – مناظرة حول هذه القضية. قضية «حسية المعرفة».. عجز فيها الجهم عن تقديم مذهب الإسلام في المعرفة للسمنيين.. فلما بعث إلى واصل بن عطاء بمقالة السمنية، لفت واصل نظره إلى مذهب الإسلام في المعرفة.. مصادرها.. ووسائل تحصيلها.. فعاود الجهم محاورة السمنيين، الذين انتهى بهم المطاف إلى اعتناق الإسلام على يد واصل بن عطاء.

أما النص الذي يذكر هذه الواقعة، ذات الدلالة الهامة - وهـو الـذي بقى لنا ضمن ما بقى من أقـدم كتـاب بلغنـا أنه تحـت عنـوان (مقـالات الإسلاميين) -لأبى القاسم البلخى (٣١٩هـ/ ٩٣١ م)- أما هذا النص فإنه يقول: «ذكر أبو الحسن بن فرزويه: أن قوما من السمنية أتـوا جـهم بـن صفوان فقالوا له:

- هل يخرج المعروف عن المشاعر الخمسة؟
 - فقال: لا.
- قالوا: فحدثنا عن معبودك الذي تعبده، أشيء وجدته في هنده المشاعر؟!.
 - قال: لا.
- قالوا: فإذا كان المعروف لا يخرج عن ذلك، وليس معبودك منها، فقد
 دخل في المجهول؟!.
 - فسکت جهم..».

هنا، في هذا الجزء من هذا النص، نرى مذهب السمنية في «المعرفة الحسية» التي لا مصدر لها سوى «الواقع المحسوس»، ولا سبيل إليها إلا «بالحواس الخمسة».. فهم يرون أن «المعروف» – أى المعرفة – «لا تخرج عن المشاعر الخمسة» – أى الحواس الخمسة!.. ولما كان الله سبحانه وتعالى، لا تدركه – أى لا تجده – هذه المشاعر الخمسة.. فلا سبيل إلى معرفته.. لقد خرج من «المعروف» ودخل – حسب مذهبهم – «في المجهول»..

على هذا النحو كان مذهب الديانات الوضعية فى المعرفة الحسية.. فكيف واجهها المسلمون؟.. وكيف ردت على هذه المعرفة الحسية مقالات الإسلاميين؟! لنستكمل قراءة النص.. فهو يقول:

«إن الجهم بن صفوان - الذي عجز عن الرد على السمنية - كتب، بوقائع هذه المناظرة، إلى واصل بن عطاء. فكتب إليه واصل:

إن المعروف لا يخرج عن المشاعر الخمسة وعن الدليل.. فارجع إليهم الآن، وقل لهم: هل تفرقون بين الحيى والميت؟! وبين العاقل والمجنون؟!. فإنهم يعترفون بذلك، وإنه يعرف بالدليل لا بغيره».

هنا في هذا الجزء، من هذا النص، يقدم واصل بن عطاء الإضافة الإسلامية في نظرية المعرفة.. فهو لا ينكر المعرفة الحسية، ولكنه لا يقتصر عليها، وإنما يضيف إلى أدواتها – المشاعر – الحواس الخمسة – يضيف «الدليل».. والدليل ليس حاسة مادية، وبه يدرك الإنسان المعارف والعلوم غير المادية، والتي لا تخضع لتجارب الحس والحواس..

فالدليل - لغة - هو المرشد والمنبه -- واصطلاحا - هو الذي يلزم من العلم به العلم بشيء آخر . هو الذي يقود الذهب إلى التسليم بحقيقة قضية كانت موضع شك، من قبل، وقد يكون: مجرد أمارة، أو ظاهرة معينة، أو شهادة شاهد، أو ضربا من الاستدلال المنطقي (۱)..

فالدليل، ليس فقط الحاسة التي تدرك المحسوس، بل قد يكون: لازم العلم بالمحسوس. والإدراك به ليس مباشرا، كحال الإدراك بالحواس. ومثاله: أن يلزم من العلم بالمصنوع البديع – وهو محسوس ـ العلم بوجود الصانع المبدع – وهو معلوم غير محسوس، لا تدركه الحواس.

لقد أضاف واصل بن عطاء «الدليل» إلى «الحـواس الخمسة»، فعبر عن الرفض الإسلامي للمعرفة الحسية، التي تقف بالمعروف عند «الواقـع المحسوس» وبأدوات الإدراك عند الحواس الخمسة

ونحن عندما نتأمل الأمثلة التى طلب واصل من الجهم بن صفوان أن يتحدى بها السمنية نجد نماذج المعرفة الإسلامية، التى واجه بها الإسلاميون خصومهم فى هذا الميدان.

لقد طلب منه أن يقول لهم: «هل تفرقون بين الحي والميت؟ وبين العاقل والمجنون؟؟» وإذا كان جوابهم - ولابد أن يكون - بد «نعم».. لزمتهم الحجة، لأن هذه التفرقة لا سبيل إليها إلا بد «الدليل». «فالحياة»: ليست مادة، تُدْرَك بالحواس.. «والموت»: ليس مادة..

 ⁽۱) انظر. الجرجانى (التعريفات).. و (المعجم الفلسفى) وضع. مجمع اللغة
 العربية القاهرة.

وكذلك «العقل» و «الجنون».. جميعها ليست مادة محسوسة تدركها الحواس.

وواصل بن عطاء، يصدر هنا عن الحقيقة القرآنية، التي ضل عنها العلم الغربي، الذي أثمرته موجة الفلسفة المادية والوضعية.. فظن أن «العقل» هو مادة «الدماغ»، وأن الفكر والإدراك والوعي ما هو إلا انعكاس لهذه المادة.. واصل بن عطاء يصدر عن الحقيقة القرآنية التي رأت «العقل»: فعل التعقل، وليس عضوا من أعضاء جسم الإنسان المادية.. والتي هي، لذلك، تحدثت عنه باعتباره «اللب» - الجوهر لإنسانية الإنسان - تارة.. ثم باعتباره «القلب». لا بمعنى: «اللحمة الصنوبرية الشكل، المستقرة في التجويف الأيسر من الصدر» وإنما بمعنى أن «القلب» - الجوهر - اللب - النهي - الذي يعقل ويفقه والذي - أيضا - يَخْتَم ويُطْبَع عليه بالغشاوات والأقفال، هو: «لطيفة ربانية، لها بالقلب الجسماني تعلق.. وهي: حقيقة الإنسان. التي يسميها الفلاسفة: النفس الناطقة!» (۱).

لقد صدر واصل بن عطاء، في حديثه عن «المعروف غير المادى» – من مثل الحياة. والموت. والعقل. والجنون. والذى يُدْرَك بدالدليسل» – وليس بالحواس الخمسة. لقد صدر عن الحقيقة القرآنية. وعن النمط الإسلامي في المعرفة، ذلك الذي لا يقف بالمعروف عند «المحسوس»، ولا بأدوات المعرفة عند «الحواس».

⁽١) الجرجائي. (التعريفات).

أما خاتمة هذا النص التراثى، الذى رواه أبو القاسم البلخى، فى كتابه (مقالات الإسلاميين) عن أبى الحسن بن فرزويه.. فإنها تقول:

إن جواب واصل بن عطاء لما جاء إلى الجهم بن صفوان «رجع به على السمنية، فقالوا له:

- ليس هذا من كلامك؟! فمن أين لك؟!.
- قال: كتب به إلى رجل من العلماء، بالبصرة، يقال له: واصل.

فخرجوا إليه _ (إلى واصل) - وكلموه، فأجابوه إلى الإسلام»(١).

ذلك مثال - مجرد مثال - لمنهج «إسلامية المعرفة» الدى واجه به الإسلاميون، بعد الفتوحات، مذاهب «المعرفة الحسية»، التى كانت سائدة فى دوائر الفكر لدى أهل الديانات الوضعية، التى تنكر «مصدر الوحى» وتقف بالمعرفة وأدواتها ومصادرها عند المحسوس المُدرَك بالحواس..

000

وإذا كانت الحضارة الإسلامية قد بدأت الترجمة لعلوم اليونان بد «علوم الصنعة» - أى علوم التمدن المدنى - التى هى «مشترك إنسانى عام».. وذلك منذ مشروع الأمير الأموى العالم خالد بن يزيد (٩٠ هـ ٧٠٨ م).. فإنها قد عرفت، في مجرى انفتاحها على هذه العلوم اليونانية، إنسانيات، بل وإلهيات اليونان.. ومنذ القرن الهجرى الثالث أصبحت الفلسفة اليونانية معروضة على العقل العربي.. فبدءًا مسن

 ⁽١) البلخى، والقاضى عبد الجبار، والحاكم الجشمى (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٢٦. تحقيق: فؤاد سيد. طبعة تونس سنة ١٩٧٧ م.

الكندى، يعقوب بن اسحاق (٢٦٠ هـ/ ٨٧٣ م) أصبح أرسطو (٣٨٤ ق. م ٣٢٢ ق. م) حاضرا في المكتبة العربية الإسلامية.. فأصبح لـ «المعلم الأول» – اليوناني – «المعلم الثاني» – العربي - الذي كتب – ضمن ما كتب. (إلهيات أرسطو). والذي قال عنه ابن جلجل، أبو داود سليمان ابن حسان الأندلسي: «.. ولم يكن في الإسلام فيلسوف غيره احتذى في تواليفه حذو أرسطاليس.. » فلقد اجتهد لإثبات «التوحيد» و «النبوة» بمنهج اليونان في المعرفة.. مذهب «أصحاب المنطق في سلوك مراتب البرهان..» فكان أن انفتح في ساحة الفكر الإسلامي باب جديد، وواسع، لمقالات غير الإسلاميين.

ولقد كان طبيعيا أن تستنفر هذه «المقالات» لغير الإسلاميين، «مقالات الإسلاميين». فشهدت الحياة الفكرية الإسلامية، غير (مقالات الإسلاميين) للبلخى – الذى سبقت الإشارة إليه – كتاب الأشعرى، أبوالحسن (٢٦٠ هـ – ٣٢٤ هـ/ ٨٧٤ م – ٢٧٦ م): الذى حمل ذات العنوان.. وكتاب العامرى: أبو الحسن محمد بن يوسف (٣٨١ هـ/ ١٩٩٢ م): (الإعلام بمناقب الإسلام)، والذى يعد أول أثر فكرى عثرنا عليمه في مقارنة الأديان الإسلام – واليهودية – والنصرانية - والزرادشتية – والوثنية – والصابئة – وهو الكتاب الذى أجاب فيه على سؤال: «لماذا أقبل الإسلام وأرفض غيره من الأديان؟؟..».

ثم شهد هذا التدافع الفكرى بين المنهج الإسلامى فى المعرفة ومناهج المعرفة لدى الملل والنحل غير الإسلامية، تلك الأعمال الفكرية البارزة فى

 ⁽١) انظر: ابن جلجــل (طبقات الأطبـاء والحكمـاء) ص ٧٧، ٧٤ تحقيـق فؤاد
 سيد. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م.

المقارنة والموازنة والمفاضلة بين الأديان (الفِصَل في الملل والأهواء والنِّحـل) لابن حزم الأندلسي (٣٨٤هـ ـ ٢٥١ هـ/ ٩٩٤م - ١٠٦٤ م) و (الملل والنحل) و (مصارعات الفلاسفة) للشهرستاني، محمد بن عبد الكريم (٤٧٩ هـ ـ ٤٨ هـ / ١٠٨٦ م - ١١٥٣ م)، والبناء الفكرى الذي أقامـه حجة الإسلام، أبو حامد الغزالي (٥٠٠ هـ - ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨ م -١١١١ م) لتمييز المنهج الإسلامي عن كل من المنهج اليوناني والمنهج الغنوصي الباطني - (تهافت الفلاسفة) و (مقاصد الفلاسفة) و (فضائح الباطنية) و (ميزان العمل) و (القسطاس المستقيم) و (معيار العلم) و (إحياء علوم الدين).. إلخ. فلما جاء شيخ الإسلام، ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (٦٦١ هـ – ٧٢٨ هـ/ ١٢٦٣ م – ١٣٢٨ م) كان جهاده على جبهة تميز المنهج الإسلامي في المعرفة الوجه الآخر المكمل لجهاده بالسيف ضد أعداء دولة الإسلام وأمته وحضارته. فكما ذاد، بالسيف، عن ديار الإسلام.. ذاد، بالقلم، عن عقيدته، وعن منهاج هذه العقيدة في تحصيل المعارف والعلوم، فكان من عطائه على هذه الجبهة: (الجمع بين النقل والعقل) — درء تعارض صريح المعقول مع صحيح المنقول، و (نقض المنطق) — الذي حاول فيه بناء منطق إسلامي، لعقيدة التوحيد، مرتبط بالعربية – لسان الإسلام – بديل لمنطق أرسطو - الخاص بلغة اليونان، ووثنيتها - وكذلك: (الرد على ابن عربى والصوفية) و (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم).. إلخ.

وفى سياق هذا الجهد الفكرى.. الذى استهدف تميز منهاج المعرفة الإسلامي عن منهاج المعرفة الحسية، شهدت المكتبة الإسلامية العديد

والعديد من الكتابات. والتى يبرز فيها كتاب ابن الوزير اليمنى، محمد ابن إبراهيم (٧٧٥ هـ – ٨٤٠ هـ / ١٣٧٣ م – ١٤٣٦ م): (ترجيح أساليب القرآن على قوانين المبتدعة واليونان).. ذلك الذى أحيا فيه منهج المعرفة القرآنى. منهج إسلامية المعرفة، في مواجهة ومقارنة ونقد مناهج المعرفة الحسية، غير الإسلامية.

وهكذا كانت المواجهة بين إسلامية المعرفة وبين مناهج المعرفة الحسية، والغنوصية. بدءا بالمواجهة القرآنية لمناهج الشرك والدهرية في المعرفة. والتي واصل الفكر الإسلامي مسيرتها عندما تصدى لمناهج المعرفة الحسية والغنوصية، تلك التي سادت في دوائر الفكر لأهل الديانات الوضعية التي تدافعت مع مقولاتها «مقالات الإسلاميين».

لقد ظل «البديل الإسلامي»، في المعرفة، مرفوعة راياته، في هذا التدافع الفكرى عبر تلك القرون.



الفصل الساوس

والبديل للوضعية الغربية الحديثة

فلما حدث ودخلت حضارتنا الإسلامية في طور التراجع والجمود _ لأسباب ليس هذا هو مقام الحديث فيها (') .. فذبل فيها الخلق والإبداع والتجديد ، وغرق العقل الإسلامي في بحار الجمود والتقليد .. تصادف زمن ذلك التراجع مع الإحياء والنهضة للحضارة الغربية في أوربا ..

ولقد قامت النهضة الغربية الحديثة ، في مناهج المعرفة ونظرياتها ، كرد فعل عنيف ومناقض لتلك المناهج التي سادت في تلك الحضارة ، إبان عصورها الوسطى والمظلمة ..

كانت الكنيسة الكاثوليكية ، إبان هيمنتها على الحضارة الغربية — سواء في ظل « القيصرية — البابوية » — التي هيمنت فيها الكنيسة على السلطة الزمنية — أو في ظل «البابوية — القيصرية » — عندما أصبح « البابوات » « قياصرة » أيضا ! . . كانت هذه الكنيسة قد جعلت « اللاهوت » هو مصدر المعرفة الوحيد . . فقدست المعرفة وثبتتها — جمدتها — عندما جعلت لها قدسية الدين وثباته . . وبعزلها «الواقع» عن أن يكون المصدر الثاني للمعرفة ، منعت « الشرعية » عن ثمرات

⁽١) انظر كتابنا « الطريق إلى اليقظة الإسلامية » - تاريح التراجع الحضارى وأسبانه ومطاهره - ص ١٨ - ١٣٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م .

معرفة هذا «الواقع» . ومن هنا كان «التحريم» للمكتشفات الجديدة . و « الحرمان الديني » لمن يطلبون « المعرفة » خارج « اللاهوت ».

لقد جعلت الكنيسة من «المعرفة» شأنا سماويا خالصا، لا مكان فيه «للواقع» وأدوات إدراكه وتصوره .. فجاءت النهضة الغربية الحديثة ، كرد فعل عنيف ومضاد لهذا الموقف الكنسى، لتجعل من «الواقع المحسوس» المصدر الوحيد للمعرفة ، ولتجعل من التجربة الحسية المذاهب التجريبية بأنواعها – السبل الوحيدة لتحصيل المعارف والعلوم.

لقد فتحت هذه النهضة الغربية الحديثة صفحة جديدة لمنهج المعرفة الحسية ، الذي عرفه تاريخ الفكر البشرى لدى أصحاب الديانات الوضعية – والذى أشرنا إلى « السُّمنيَّة » نموذجا له – به لقد تصاعد رد الفعل هذا بتيارات الوضعية الغربية إلى حد الزعم بأن « الدين : وضع بشرى»! .. وليس « وضعا إلها » ، وذلك عندما أذكرت هذه الوضعية « الوحى» كمصدر من مصادر المعرفة الحقيقية ، واعتبرته – في أحسن الحالات ، وأخف وألطف التعبيرات : ميتافيزيقا ، وخيالات، إن جهاز أن يكون تصورات لمرحلة من مراحل طفولة وسناجة العقل الإنساني . فغير جائز أن يكون « معرفة » بالمعنى الدقيق لهذا الاصطلاح .

لقد قال الوضعيون الغربيون: « إن العقل الإنساني قد مر بحالات ثلاث: حالة لا هوتية، وحالة ميتافيزيقية، وحالة واقعية».. هي تلك التي غدا « الواقع » فيها المصدر الوحيد للمعرفة الحقة – فالحق بنظرهم، هو « ثمرة التجربة » وحدها(۱).

⁽۱) انظر [القاموس الفلسفى] - مادة المذهب الوضعى - تأليف مراد وهبة، ويوسف كرم، ويوسف شلاله.

وكما قال « السُّبِنَّية » - القدماء : إن ما عدا « المعروف بالحواس » هو « مجهول » .. قال أبو المذهب الوضعى أوجست كونت [١٧٩٨ - ١٨٥٧ م] : إن ما عدا « الواقع » المحسوس هو « وهم » من الأوهام! .. والفكر الإنسانى لا يدرك سوى الظواهر الواقعية المحسوسة، وما بينها من علاقات أو قوانين ، وإن المثل الأعلى لليقين يتحقق في العلوم التجريبية .. فالتجربة هي مصدر المعرفة الحقة الوحيد ومن ثم فإنه يجب العدول عن كل بحث في العلل والغايات وفي المبادئ الأولية .. فكل المعرفة مستمدة من الحسس أو التجربة أما « مصدر الوحي » ، فلقد اعتبرته الوضعية : إفرازا بشريا تلاءم مع مرحلة الطفولة التي مربها العقل البشرى ، قبل أن يصل إلى مرحلة الطفولة التي مربها العقل البشرى ، قبل أن يصل إلى « الوضعية - التجريبية » ، عبر « الميتافيزيقا » ..

بل لقد شابهت هذه الوضعية الغربية الحديثة ، في منهجها هذا في المعرفة ، أسلافها القدماء ، من أبناء الديانات الشرقية الوضعية – مثل « السُّمَنيَّة » التي أشرنا إليها – عندما سارت على ذات الدرب ، « حذو النعل بالنعل »! .. فقالت با « الدين الوضعي » .. فكتب أوجست كونت كتابه [تعاليم الدين الوضعي] سنة ١٨٥٢م..

وفى هذا « الدين الوضعى » ، جعل هذا « المتنبئ الوضعى الجديد . » :

 ⁽١) المرجع السابق: وانظر كذلك مادة « تجريبي » في « القاموس الفلسفي »
 وضع: مجمع اللعة العربية - القاهرة.

- العبادة للكائن الأعظم الذى رمز له بصورة الأنشى فى معابد تحتوى على تماثيل نصفية لمن رآهم قد أحسنوا إلى الإنسانية ..
- وجعل لهذا الدین الوضعی «تقویما وضعیا». سمیت شهوره بأسماء: موسی، وأرشمیدس . وفردریك الثانی .. وغیرهم من أمثالهم ..
- أما أعياد هذا الدين ، فهى احتفالات بالعظماء ولقد جعل أوجست كونت فى هؤلاء العظماء الذين تقام الأعياد احتفالا بهم أصدقاءه الذين ساندوه فى محاولته الفاشلة لاحتلال منصب الأستاذية بمدرسة الفنون التطبيقية..
- أما روحانيو هذا الدين الوضعى ، فهم العلماء التجريبيون .. بدلا من رجال اللاهوت »(۱)

فهى إذن « الردة العنيفة » ، و « رد الفعل العنيف » على الموقف الكنسى والمنهب اللاهبوتى فى مصادر المعبرفة وسبل تحصيلها .. لقد جعلت الكنيسة المعرفة شأنا سيماويا خالصا ، لا علاقة له بالواقع » . فجاءت الوضعية لتجعلها شأنا أرضيا « واقعيا » خالصا لا علاقة له بالوحى ولا بنبأ السماء..

والأمر الذى يؤكد هذه الحقيقة هو ما ذهب إليه أبو الوضعية الغربية، و « متنبئ دينها الوضعى » الجديد، فى تقسيمه لمراحل تطور المعارف والعلوم .. فلقد رآها مراحل ثلاث :

 ⁽١) انظر [الموسوعة الفلسفية المحتصرة] ص ٢٦٧ – إشراف ومراجعـــة :
 د. ركى بحيب محمود . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م.

١ – المرحلة اللاهوتية.. وهي مرحلة الحكم الديني .. التقليدية ،
 التي اتسقت فيها السلطة بين قوة الملوك الدنيوية وقو الكهنة الروحانية ..

٢ - والمرحلة الميتافيزيقية .. التى حدث فيها نوع من الفوضى ،
 تعرضت فيها كل من السلطة الدنيوية والسلطة الروحانية للهجوم ..

" - والمرحلة الوضعية .. التي يكون فيها رجال العلم التجريبي قوة روحية جديدة.. وتسود فيها المعرفة الوضعية .. ويصبح الدين وضعيا أيضا!.. وتصبح كل العلوم، حتى الإنسانية منها، طبيعية، في مناهجها، وفي درجة الحياد والموضوعية والتعميم لقوانينها ومقولاتها حتى لقد أطلق على علم الاجتماع الذي أسسه : «الفيزيقا الاجتماعية» (١٠).. وقال، فيما قال: «إننا مادمنا نفكر بشكل وضعى في مادة علم الفلك أو الفزياء ، لم يعد بإمكاننا أن نفكر بطريقة مغايرة في مادة السياسة أو الدين ، فالمنهج الوضعى الذي نجح في علوم الطبيعة يجب أن يمتد إلى كل أبعاد التفكير »(١) ..

لأنه قد رأى كل أبعاد التفكير وكل ألوان المعارف ، وكافة العلوم صادرة عن مصدر واحد للمعرفة ، هو « الواقع المحسوس » .. فكل المعارف « تجريبية » ، ومن ثم يمكن التعبير عنها « بلغة الفيزيقا » (")..

⁽١) المرجع السابق، ص ٢٦٦، ٢٦٧.

⁽ ٢) محمد أمزيان [منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية] ص ٤٦، ولا عبد العالمي للفكر الإسلامي سنة ١٩٩٢م.

⁽٣) [الموسوعة الفلسفية المختصرة | ص ٤١٧.

هكذا بدأت وتبلورت « الوضعية » الغربية - بمدارسها المختلفة - وانقساماتها التيى تمايزت في الفروع والتفاصيل والتخصصات : الوضعية .. والوضعية المنطقية .. والتجريبية .. والسلوكية .. والمادية - بمذاهبها وفروعها .. إلخ .. إلخ..

فكما جَرَّم اللاهوت الكنسى الغربى « المعرفة الواقعية » لجاليليو المعرفة الإيمانية » ، [١٥٦٤ – ١٦٤٢م] . . جَرَّمت الوضعية الغربية « المعرفة الإيمانية » ، معتبرة إياها : إفرازا بشريا طفوليا ، تجاوزه العقل البشرى عندما تجاوزت الإنسانية مرحلة طفولتها..

وهكذا عاد الخلل إلى مصادر المعرفة ، وإلى أدواتها ، عندما قامت على ساق واحدة، هي «كتاب الوجود» ، معرضة عن ساقها الأخرى ، «كتاب الوجود» ، معرضة عن ساقها .. عاد إليها هذا الخلل القديم ، من جديد .

لقد غدت الوضعية: « دين الفكر الغربي » ، الذي استبدل « بدين الايمان السماوي » . . ثم اتخذت الأشكال المتعددة في الميادين المختلفة . .

● فهى قد جعلت « الوعدى » نشاطا ماديا ، هو انعكاس « للدماغ » ، الذى حسبته « العقل » .. أى أنها قد جعلت « العقل » و « التعقل » مادة .. حتى لا يكون هناك شىء فى الإدراك والمعرفة غير الحس والمحسوس والحواس .. وقال هكسلى توماس . ها [١٨٢٥ – ١٨٩٥م] : « يبدو أن الوعى متصل بآليات الجسم كنتيجة ثانوية لعمل الجسم ، لا أكثر ، وأن ليس له أى قدرة كانت على تعديل عمل الجسم ، مثلما يلازم صفير البخار حركة القاطرة دونما تأثير على البتها .. ».. وقال أيضا ، فى سياق الادّعاء بهذه «المادية الميكانيكية» :

« إن الأفكار التى أعبر عنها بالنطق ، وأفكارك فيما يتعلق بها إنما هي عبارة عن تغيرات جزئية ..» (١)..

ولقد قادت هذه «المعرفة الحسية» ، التي أنكرت « مادون المحسوس والحواس » ، قادت أصحابها إلى « دهرية جديدة » في الاعتقاد ! .. فالدهريون الأول قد قالوا : ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ (٢) .. ورأوا في الموت نهاية كل شيء ، يستوى في ذلك « الجسم» و «العقمل» و «النفس» و «المروح» و «الفكر» و «الإرادة» .. فالناس – كما قالوا – هم مثل الزرع! .. نراه مختلفا

ألوانه، ثم يصير حطاما، لا عودة له، ولا بعث ولانشور!.. لأنه كما قال هؤلاء الماديون- : « إذا كان التفكير والإرادة نشاطين من أنشطة الدماغ، فسيفنيان بفناء الدماغ. وإذا كان كل جزء من أجزاء الإنسان مادة، فلابد من أن يكون كل جزء منه عرضة للفناء..» (") ..

وانطلاقا من هذه الفلسفة المادية للعلم الغربى، انطلق داروين (تشارلن) للمرام - ١٨٠٩م اففسر - في الدارونية - نشأة الحياة تفسيرا ماديا - أو إلى هذه النتيجة قادت أبحاثه فريقا من تابعيه - فهى - الحياة - قد نشأت ذاتية بواسطة التفاعلات والتغيرات الجزئية التي اعترت المواد الأولى التي تخلقت منها - تماما كما تخلق الوعى ونشأ من مادة الدماغ،

 ⁽۱) روبرت م. أغروس ، جورج ن ، ستانسيو [العلم في منظوره الجديد] ص
 ۲۲، ۲۵ ترجمة كمال خلايلي. طبعة الكويت . عالم المعرفة سنة ۱۹۸۹م.

⁽ ٢) سورة الجاثية : الآية ٢٤.

⁽٣) (العلم في منظوره الجديد) ص ٢٥.

بالتغيرات الجزئية.. فما قاله هكسلى فى عالم الأفكار، قالبه دارون فى عالم الأحياء عالم الأحياء

وتطبيقا لهذه النزعة المادية – في عالمي الأفكار والأحياء – في الاجتماع والأموال والثروات والاقتصاد قال ماركس (كارل) (١٨١٧م – ١٨٨٣م) «إن تطور المجتمعات والاجتماع البشرى إنما هو بتأثير المحرك الأول: الواقع المادي.. والاقتصاد – قوى الانتاج، وعلاقات الإنتاج.. فالمعرفة مادية، تعكس «الواقع» في «الفكر»، وهي قائمة على الممارسة، نبدأ بالإدراكات الحسية للأشياء (١٠) .. ولا شيء غير «الواقع» المنعكس في «فكر» الإنسان، بواسطة «مادة الدماغ».. أما « الله» و «الدين» – وكل ماجاء به «كتاب الوحي» ، فهو خيال وخرافة اخترعها المحرومون، تسلية لأنفسهم، أوالخبثاء الأغنياء تخديرا للفقراء».

ولقد تصاعدت الماركسية بهذه «الدهرية» المنكرة «لمصدر الوحيى» والمعادية للدين، من مستوى « الخيار _ الفردى» إلى حيث جعلتها «مهمة ثورية» دعت « الثوار» إلى النضال لتعميمها على الإنسانية ومجتمعاتها، باقتلاع الدين والتدين اقتلاعا من هذه المجتمعات، جاعلة من هذه «المهمة» جزءا لا يتجزأ من «تحريرها» الإنسان من «القيود».

لقد تنوعت مدارس الفكر الغربى ومذاهبه، وتعددت فى إطار نهضته الحديثة العلوم والمعارف والتخصصات. لكن الوضعية. والنزعة المادية. والمذهب الحسى فى المعرفة. كانت القاسم المشترك الأعظم فى معظم هذه

⁽١) (الموسوعة الفلسفية) ــ مادة المعرفة ــ وضع لجنة من العلماء السوفيت ــ ترجمة: سمير كرم. طبعة بيروت. سنة ١٩٧٤م.

المدارس والمذاهب والمعارف والتخصصات.. حتى لقد انطبع فكهر النهضة الغربية الحديثة بهذا الطابع «الدهرى.. الحسى» إلى حد كبير..

ولقد تزامن ذلك مع تراجع حضارتنا الإسلامية.. ومسع الموجسة الاستعمارية الغربية الحديثة، التى حملت إلى بلادنا الإسلامية – بعد خضوعها لهيمنة هذه الموجة الاستعمارية – مع النهب الاقتصادى.. والإلحاق الأمنى والسياسى.. نزعتها هذه فى المعرفة الحسية، والتوجه المادى.. فأعاد تاريخ المواجهات الفكرية سيرته الأولى من جديد.. مع تغير فى مواقع الفرقاء.. فبعد الفتوحات الإسلامية نهض الإسلاميون بمواجهة مذهب المعرفة الحسية – الواقف عند المحسوس والحواس-نهضوا بمواجهته بمذهب الإسلام فى المعرفة، فى البلاد التى فتحها المسلمون.. لقد قدموا «البديل الإسلامي» فى المعرفة، كجزء من المشروع الحضارى الإسلامى، الذى انتصر، وغدا – لأكثر من عشرة قرون – منارة العالمين..

واليوم. وبعد الغزو الغربى لوطن العروبة وعالم الإسلام، منذ نحو قرنين من الزمان، اقتحم الفكر الغربى على العقل المسلم دياره ومعاقله، محاولا أن يفرض عليه _ ضمن ما يريد فرضه _ نموذجه الحضارى الغربى، المؤسس على النزعة المادية والحسية فى المعرفة. الأمر الذى يجعل من شعار «إسلامية المعرفة» التعبير عن مهمة ثقافية ورسالة فكرية، هى المدخل والسبيل والأداة لبلورة الطور المعاصر لمشروعنا الحضارى الإسلامى، الذى لابد لنا من إحيائه وتجديده، لنواجه به المشروع الغربى..

فالقضية الآن أكبر من مهمة ثقافية.. وأخطر من رسالة فكرية.. وأعظم من «هم أكاديمي» .. إنها جزء من المشروع الحضارى الإسلامي، الذي يمثل بالنسبة ليقظتنا الإسلامية الحديثة.. دليل العمل الذي ينير لهذه اليقظة الطريق.. والرائد الذي لايكذب أهل هذه اليقظة.. وطوق النجاة لأمتنا من هاوية التبعية الفكرية والاستلاب الحضارى، الذي أقام له «الآخر الحضارى» في عقر دارنا المؤسسات التي تبث مذاهبه في المعرفة ومناهجه في صياغة الواقع وتشكيل الحياة..

تلك هي المهمة التي يطرحها شعار «إسلامية المعرفة» على العقل المسلم، في المنعطف التاريخي، والظرف الحضاري الذي نعيش فيه..

000

الفصل السابع

وقسمة في مشروعنا الحضاري البديل

ولعل مما يزيد العقل الإسلامي ثقة في خطر هذه القضية _ قضية: إسلامية المعرفة _ واطمئنانا إلى توافر إمكانات النجاح فيها _ غير القياس على انتصار أسلافنا العظام على الوضعية القديمة والدهرية القديمة _ لمن كثيرا من دوائر الفكر الغربي ذاته قد أخذت تفيق من خدر الاطمئنان الذي خدعتها به موجة المعرفة الحسية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين..

لقد شهد العلم الغربى، منذ العقود الأولى للقرن العشرين، العديد من الاكتشافات العلمية، التى يعدها المؤرخون له بمثابة «الثورات» التى كشفت عورات افتقار المعرفة الحسية والمادية إلى التوازن، ومن ثم افتقادها لمقومات «الصدق المعرفي».

- ففی الفیزیا، مثلت أبحاث ونظریات ومکتشفات أینشتاین الفیزیا، مثلت أبحاث ونظریات ومکتشفات أینشتاین Bohr م ۱۸۷۹ م ۱۸۷۹ م ۱۸۷۹ م ۱۹۰۱ م ۱۹۷۰ م الورة کبری..
- وفى مبحث الأعصاب، مثلت أبحاث ومكتشفات شرنجتون ... واكلس Eccles من مواليد ١٩٠٣.. وإكلس Eccles من مواليد ١٩٠٣.. وسبرى Sperry (١٨٦٠ ١٩٣٠م).. وبنفيلد Penfield ثورة جديدة..
- وفى علم النفس، مثلت أبحاث ومكتشفات فرانكل Frankl...
 وماسلو Maslow وماى May ثورة أخرى..

● وفي علم الكونيات. كانت نظرية «الانفجار العظيم»، و«المبدأ الإنساني»، فتحا علميا جديدا، مثل مع الثورات العلمية في الفيزياء والأعصاب. وعلم النفس الأسس الجديدة لمعرفة غير حسية وبمعنى أدق لاتقف على «ساق الحس» وحدها. وبعبارة أهل الاختصاص من علماء الفيزياء، الذين يحللون مغزى هذه الثورات العلمية، ويؤرخون لها: (فإن هذه المكتشفات لم تقلب التصور الحديث الذي كان سائدا في العلم الغربي للإنسان ولمكانته في العالم فحسب، بل هي تقدم تفسيرا جديدا..).

لقد كان التصور السائد في دوائـر العلم الغربي، إبان حقبة الموجة المادية والحسية في المعرفـة، هـو «أن لا وجـود إلا للمادة، وأن الأشياء جميعا قابلة للتفسير بلغة المادة فحسب، وهكـذا يتحتم أن تكون حرية الاختيار وهما من الأوهام ما دامت المادة غير قادرة علـي التصرف الحـر. ولما كانت المادة عاجزة عن أن تخطط أو تهدف إلى أي شيء، فـلا سبيل إلى العثور على حكمة وراء الاشـياء الطبيعية ـ (عـالم الغيـب) - بـ الله إن العقل ذاته يعتبر نتاجا ثانويا لنشاط الدماغ..

ولقد وصف برتراند رسل Bertrand Rassell (۱۹۷۰ م ۱۸۷۰ م) هذا التصور المادی الذی ساد دوائر المعرفة والعلم الغربی فقال: « لأن یکون الإنسان نتاج أسباب لاتملك العدة اللازمة لما تحققه من غایات، ولأن یکون منشؤه ونموه ومخاوفه وصبواته ومعتقداته مجرد حصیلة إرتصاف ذات عرضی، ولأن تعجز أی حماسة مشبویة أو بطولة، أو أی جدهفی التفکیر أو الشعور، عن الإبقاء علی حیاة فرد واحد فیما وراء القبر، ولأن

يكون الاندثار هو المصير المحنوم لكل عناء الأجيال، ولكل التفانى، ولكل عبقرية الإنسان المنألقة تألق الشمس فى رابعة النهار، كل هذه الأمور إن لم تكن حقا غير قابلة للجدل فإنها مع ذلك تقترب من اليقين إلى حد يستحيل معه على أى فلسفة ترفضه أن يكتب لها البقاء. وعلى ذلك لا يمكن بناء موطن الروح بأمان إلا فى إطار هذه الحقائق وعلى أساس راسخ من القنوط المقيم..»..

نعم .. لقد سادت «دهرية القنوط المقيم!» مما وراء المادة.. في حقبة النهضة الحديثة للمعرفة الغربية _ الحسية _ والعلم الغربي _ المادى _ المادى عمم هذه النظرة على جميع العلوم، المادية منها والإنسانية..

لكن المؤرخين الجدد، للعلم الغربى، الذين رصدوا الثورات المعاصرة في هذا العلم، يقولون إن ذلك التصور «الدهرى – القانط» قد طويت صفحته بهذه الثورات العلمية المعاصرة وبمعطياتها في نظرية المعرفة. وبعبارة عالم الفيزيا، هنرى مارجينو Henry Margenau. إن العقيدة الأساسية للمذهب المادى – وهي أن الحقيقة كلها تكمن في المادة وهذا رأى كان مقبولا بعض القبول في أواخر القرن الماضى (التاسع عشر) غير أن أمورا كثيرة حدثت في هذه الأثناء تكذب هذا الرأى..».

وبعبارة عالم الفيزياء فيرنر هايزنبيرج: «إن الفيزياء الذرية المعاصرة قد نأت بالعلم عما كان يتسم به من اتجاه مادى في القرن التاسع عشر».

إذن .. فنحن أمام جديد.. وبإزاء تحولات في مُذهب المعرفة الغربية.. تحولات عن النزعة المادية البحتة والحسية الصرفة..

لقد قال الإمام الغزالي قديما: «طلبنا العلم لغير الله، فأبي أن يكون إلا لله». لقد بدأ جراح الأعصاب «ويلدر بنفيلد» تجاربه على الدماغ،

بهدف إثبات النظرة التى كانت سائدة ــ النظرة المادية - «الدماغ يفسر العقل» —لكنه وصل عبر دراسة ما يربو على ألف حالة ــ إلى إثبات عكس هذه النظرة المادية.. وصل إلى أن العقل غير الدماغ.. فالدماغ هو مقر الإحساس والذاكرة والعواطف، والقدرة على الحركة. لكنه ليس مقر العقل أو الإرادة.. والعقل، لا الدماغ، هو الذي يراقب ويوجه في آن معا.. هو الذي يتخذ القرارات وينفذها، مستعينا بمختلف آليات الدماغ»..

لقد وصل بنفيلد إلى هذه الحقائق.. ورتب عليها معطياتها في نظرية المعرفة.. فكتب في كتابه (لغز العقل)..

«إنه أقرب إلى المنطق أن نقول: إن العقبل ربما كان جوهرا متميزا ومختلفا عن الجسم».

وأمام هذا الذى قاله .. نتذكر تعريف الإسلاميين للعقل، بكلمات الشريف الجرجانى (٤٧٠هــ- ١٣٤٠هـ/١٣٤٠م - ١٤١٣م): «هو جوهر مجرد عن المادة فى ذاته، مقارن لها فى فعله.. جوهر روحانى خلقه الله تعالى متعلقا ببدن الإنسان.. نور فى القلب يعرف الحق والباطل».

ونتذكر، أيضا، تعريفه لـ«القلب» ، الذى يعقل ويفقه ـ كما جاء فـى القرآن الكريم ـ والذى يقول عنه : إنه «لطيفة ربانية لها بهذا القلب الجسمانى الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الأيسر من الصدر، تعلق. وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسان. ويسميها الحكيم: النفس الناطقة.. وهى المدرك والعالم من الإنسان، والمخاطب والمطالب والمعاتب..»

إنه التعريف الإسلامي، الذي لم ير الإنسان مجرد مادة تفرز الفكر بالتفاعلات لجزئيات هذه المادة..

ومن هذا المعنى يقترب العلم الغربى المعاصر، بتجارب علمائه على الأعصاب.

بل لقد خطا ويلدر بنفيلد خطوة أخرى، هامة، عندما قال ـ متعجبا وهو الذى بدأ أبحاثه بهدف دعم النظرة المادية والحسية للمعرفة ـ قال «. . فياله من أمر مثير، إذن، أن نكتشف أن العالم يستطيع، بدوره أن يؤمن عن حق بوجود الروح. و إذا كان العقل والإرادة غير ماديين. فلاشك أن هاتين الملكتين ـ على حد تعبير «أكلس» . «لاتخضعان بالموت للتحلل الذى يطرأ على الجسم والدماغ كليهما..»(١).

الله أكبر . . .

إننا بإزاء إيمان «بالروح».. وإيمان بخلودها.. وإيمان بأن تحلل الجسم وفناء المادة ليس نهاية المطاف..

وهنا تضاهى هذه «التجريبية الجديدة» – إن جاز التعبير – «التجريبية الإسلامية» المؤمنة، فيما انتهت إليه من معطيات. لكن يبقى «البديل الإسلامي» متميزا.. فهو لا ينطلق، في المعرفة، فقط من «الواقع.. والحس.. والتجريب»، وإنما ينطلق، أيضا، من «كتاب الوحي» وهو ما يفتقده ويفتقر إليه هؤلاء «التجريبيون الجدد الغربيون».

لقد اكتشف بنفيلد «أمرا مثيرا»!.. أما العالم المسلم، الذي ينطلق من «كتاب الوحى» و «كتاب الكون»، فإنه يكتشف، بالتجربة، في «كتاب الكون» : الأسرار التي أودعها صاحب «الوحى» و «خالق

⁽١) العلم في منظوره الجديد ص٣٩، ٢٢، ٢٣.

الوجود».. فهو ينطلق من الإيمان الديني.. ينطلق من «الشرعي» ، لاكتشاف «المدني – الكوني» ، ثم يوظف ثمرات العلم «المدني – الكوني» في دعم الإيمان «الديني – الشرعي»، ويكون لذلك أكثر خلق الله خشية لله.. ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ (۱).

فالتطور الذى يحدث فى العلم الغربى المعاصر.. ومعطياته فى نظرية المعرفة.. هو مما يدعم ثقتنا فى «البديل الإسلامى» .. ويزيد من إلحاح هذه القضية على العقل المسلم.. لتنقية علومنا من آثار الموجة المادية للعلم الغربى الحديث.. ولصياغة هذه العلوم وفق منهاج إسلامية المعرفة.. وللإسهام، بعد ذلك فى تزكية وترشيد هذا التوجه الجديد والوليد عند الغربيين..

$\Diamond \Diamond \Diamond$

إن الإسلام الذي صاغ أمته، عندما صبغ حضارتها بصبغة الله _ بإقامته العلاقة بين «الشرعي» و «المدني» في المعارف والعلوم..

إن هذا الإسلام، الذي صاغ الأمة. ومنهاجها في المعرفة، هذه الصياغة الإيمانية المتميزة. هو الذي صاغ _ تبعا لذلك، وبسبب ذلك _ علماء هذه الأمة صياغة متميزة كذلك.

«تجریبیون – مؤمنون».. و «روحانیون -- مادیون»! .. فنجت حیاتنا الفکریة والعلمیة من ذلك «الفصام النکد» بین «النظر و «التجریب» بین «العمل الذهنی» و «العمل الیدوی».. بین «الشرعی» و «المدنی»..

⁽١) سورة فاطر الآية ٢٨.

فالدين: وضع إلهى .. يسوق الإنسان لعبادة الله ولعماران الكون، مستعينا في ذلك كله بكتابي «الوحمي» و «الوجود» . ومن هنا:

- كان أبو الوليد بن رشد (٢٠٥هـ ٥٩٥هـ / ١٢٢٦م ١١٩٨م) يفزع الناس إلى فتواه في الفقه كما يفزعون إلى فتواه في الطب!.. فيهو الطبيب المجرب. والفقيه الأصولي المتكلم.. الحكيم!.. إنه صاحب (كتاب الكليات) في الطب و (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) في الفعه و (مناهج الأدلة في عقائد الملة) و (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) في علم الكلام والتوحيد.
- وكان ابن سينا، أبو على الحسين بن عبد الله (٢٧٠هــ ٤٢٨هــ / ٩٨٠ ٩٨٠ م) «الشيخ الرئيس» في «الشيرعي» و «المدني» .. في «الإلهيات» و «الطبيعيات».. في «التصوف» و «النبات والحيوان» و «الهيئة»! فمن آثاره في الطب (القانون).. وفي الحكمة والإلهيات (الشفاء) و(المعاد) و (أسرار الحكمة المشرقية).. وفي التجريب والطبيعة: (النبات والحيوان) و (الهيئة) و (أسباب الرعد والبرق).. إلخ.
- وكان البغدادى أبو منصور عبد القاهر بن طاهر (٢٩هـ/ ١٠٣٧م) وهو الذى اشتهر بإبداعاته المتميزة فى أصول الدين ـ المبرز فى الحساب. وفى الهندسة!.. حتى لقد قالوا: إنه كان يُدَرس فى سبعة عشر فنا!.. ومن آثاره: (أصول الدين) و (وتفسير

القرآن) و (معيار النظر) و (التكملة في الحساب) و (رسالة في الهندسة).. إلخ.

● وكان الخيام، أبو الفتح عمر بن إبراهيم (١٥هه/١١٢١م) اللغوى.. الشاعر.. والفيلسوف.. المؤرخ.. والرياضى.. الفقيه.. والمهندس.. الفلكى!.. ولقد بقيت لنا من آثاره (مقالة فى الجبر والمقابلة) و (شرح ما يشكل من مصادرات أقليدس) و (الاحتيال لعرفة مقدارى الذهب والفضة فى جسم مركب منهما) و (الرباعيات) و (الخلق والتكليف).. وغيرها من الآثار الشاهد تنوعها وتكاملها على هذا المذهب الإسلامى فى تكامل مصادر المعرفة وتكامل أدواتها، ومعرفة علمائها.

● وكان الفخر الرازى، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر (٤٤ه - ٢٠٦هم/ ١١٥٠ - ١٢٠٠م) الإمام فى علوم الدين والدنيا جميعا.. حتى لقد قال مؤرخوه: «إنه كان أوحد زمانه فى: المعقول.. والمنقول.. وعلوم الأوائل».. ومن بين آثاره الكثيرة والجامعة لأقطار المعرفة وتخصصاتها، نجد: «مفاتيح الغيب» - فى تفسير القرآن الكريم و «معالم أصول الدين»، و «لوامع البينات فى شرح أسماء الله الحسنى والصفات» و «الخلق والبعث» فى التوحيد وأصول الدين، و «محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين» و «نهاية العقول» و «البيان والبرهان» - فى الفلسفة - و «المباحث المشرقية» - فى التصوف - و «السر المكتوم» - فى الفلسفة - و «النبوات» - فى النبوة والرسالة - و «النفس» - فى

علم النفس — كما أبدع في الهندسة «كتاب الهندسة» و «كتاب مصادرات إقليدس».. إلخ.

هكذا تجسّد توازن وتكامل مصادر المعرفة، فى المنهج الإسلامى، وتوازن تكامل أدوات وسبل تحصيلها، فى هذا المنهج.. هكذا تجسّد فى العلم الإسلامى، وفى العقل الإسلامى، وفى تراث علماء الإسلام.. فكان الاشتغال بجميع العلوم، «الشرعى» منها و «المدنى»، و «النظرى» منها و «التجريبي»، عبادة وقربة إلى الله، وامثالا لأوامره وتكليفاته.. فبالعلوم الشرعية تعرف المقاصد الإلهية فى العمران البشرى، وبالعلوم المدنية يقيم البشر العمران الذى استخلفهم خالقهم لإقامته فى هذا الوجود.. وفيهما معا، وبهما جميعا يكتشفون آيات الله، سبحانه وتعالى، فى الأنفس والآفاق.. فيظل العلم، بهذا المنهج فى المعرفة، الباب المفتوح دائما وأبدا لاكتشاف الحقيقة فى عالم الشهادة، ودعم قواعد الإيمان بالله وعالم الغيب!.. وصدق الله إلعظيم إذ يقول (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) (١٠).

وإذا كانت هذه هي سمات وثمرات التكامل في منهج «إسلامية المعرفة».. وفي المعلوم التي أثمرها هذا المنهج.. وفي العلماء الذين التزموه في إدراك وتحصيل هذه المعارف والعلوم.. فلقد كان طبيعيا أن تكون الصورة سلبية وشائهة على جبهة الحضارة التي اختل فيها ميزان هذا المنهج.

⁽١) سورة فصلت. الآية ٥٣.

ومن منا لا يدرك ذلك دون كثير عناء إذا هو قارن بين هذا التكامل الذى أشرنا إليه على الجبهة الإسلامية، وبين واقع النهضة العلمية الغربية، ذات المنهج الحسى والمادى في المعرفة.

● لقد كان التقدم العلمى، فى علوم الدنيا، نقضا وإنكارا للوحى والدين.. حتى لقد قادت الاكتشافات العلمية هناك أصحابها إلى «تأليه الإنسان».. فصاح بعضهم تلك الصيحة المنكرة – المعبرة عن هذا الخلل – فقال: لقد مات الله – تعالى الله عن ما صاحوا به علوا كبيرا! –.

● وكان الكثير من ثمرات هذا المنهج المختل – القائم على ساق المعرفة الحسية وحدها – وخاصة في العلوم الإجتماعية والإنسانية – ثمرات معتلة.. ففي الوقت الذي زعموا لها حياد ودقة وموضوعية العلوم الطبيعية والتجريبية، رأينا اكتساح التطور لها كما تكتسح الصحة والعافية العلل والأمراض!.. لقد أثمر هذا المنهج الأعوج مذاهب وفلسفات ونظريات، كانت أقرب إلى «الأمراض الفكرية» وإلى «الفجر – الكاذب»، الذي سرعان ما يتوارى، حتى وإن بهر بعض الأبصار.

وأثمر ألوانا أخرى من المذاهب والفلسفات، كانت تعبيرا خاصا عن أمراض أو ملابسات غربية خاصة. ومع ذلك، فلقد زعموا لها «العلمية» و «الحيادية» .. فذهبوا يفرضونها على البشرية جمعاء.

وبسبب من الطابع المادى والحسى لمناهج المعرفة فى هذه النهضة الغربية الحديثة، فلقد تصور الغرب أن هيمنته على الشعوب المستضعفة، وتدميره للبنية الاقتصادية والاجتماعية فى مجتمعاتها، ومسخه ونسخه

وتشويهه لموروثها ومعرفتها. ظن ذلك لها «رسالة حضاريه» بدفع الرجل الأبيض ضريبة نشرها في العالمين.

وبسبب من هذا الطابع الحسى والمادى، أيضا، كانت التطبيقات الغربية لثمرات عبقريته فى العلم الطبيعى.. كانت تطبيقاتها فى دمار البيئة وتلويثها والاخلال بتوازنها.. وكما عد قهره للأمم الأخرى «رسالة حضارية» .. فلقد اعتبر العدوان على الطبيعة «رسالة حضارية» أخرى! جعل من عبارات: «قهر الطبيعة » و«السيطرة عليها» و«تسخيرها للإنسان» عناوين عليها.

ولأن هذا المنهج الحسى والمادى، لا يعترف بغير الواقع المحسوس، ولا يؤمن بغير عالم الشهادة فلقد أثمر «الدهرية» التى لا ترى للحياة الإنسانية مقاصد غير «الوفرة المادية» التى تحقق للإنسان لذات وشهواته، التى لاتتناهى عند حدود!.. وبواسطة القسوة العنيفة، والصراع الذى لا يعرف القيود..

لقد أثمر هذا المنهج في المعرفة الغربية علوما ومعارف ومذاهب تحقق للإنسان «قوة المفترس» الذي يأكل في سبعة أمعاء بينما عجزت عن تحقيق الإشباع الروحي لهذا الإنسان، فاختل توازنه عندما لبت له حاجات الجسد، دون حاجات الروح.. حتى لقد أدى هذا الخلل إلى تهديد الجسد ذاته بالدمار، لغياب دور الروح في ترشيد الإشباع المادى لجسد هذا الإنسان.

000

إن ما أشرنا إليه من تحولات جديدة في فلسفة العلم الغربي المعاصر.. تحولات عن حسية المعرفة وماديتها .. هي حوافز لمزيد من ثقتنا بمنهجنا

الإسلامى المتميز فى المعرفة. لابد وأن تدفعنا إلى مزيد من الجهد، لبلورة المنهج _ منهج إسلامية المعرفة _ وصياغة علومنا الإنسانية وفلسفة علومنا الطبيعية وفقا له.

وإن ما نشهده من سقوط وتراجع الكثير من مذاهب الغرب ونظرياته، التى بهرت الأبصار لعقود عديدة من الزمن.. سقوطها وتراجعها، كحال الفجر الكاذب، وكشأن الأمراض التى تكتسحها الصحة والعافية.. لهو حافز آخر لمزيد من الجهد الذى يجب أن يبذل فى هذا الميدان.. وإلا فَمَنْ ذا الذى لا يكتشف فى سقوط وتراجع «الماركسية»، و«الداروينية»، و «الوجودية»، و «الفرويدية»، والكثير من مذاهب ومناهج البحث والنقد فى الفنون والآداب.. من ذا الذى لا يكتشف فى ذلك ووراءه خلل حقيقى وأكيد فى المنهج المادى والحسى للمعرفة التى أثمرت هذه المذاهب والنظريات؟!.. ويرى فى هذا تأكيدا وإلحاحا على ضرورة بلورة المنهج البديل؟!..

لقد ظلمنا بجمودنا وتقليدنا لـ«تخلفنا الموروث» المنهج الإسلامى المتميز في المعرفة، عندما وقفنا عند تراث عصر تراجعنا الحضارى.. ولم نول المنهج القرآني في المعرفة، الذي واجه به علماء عصر نهضتنا مذاهب المعرفة الحسية عند الأمم والنحل الأخرى.. لم نوليه ما هو أهل له من الاهتمام.

وظلمنا هذا المنهج الإسلامي، مرة أخرى بتقليدنا «للنموذج الغربي» في نظرية المعرفة. فحلت الوضعية والمادية والتجريبية بمعانيها الغربية به واحتلت المكان الأرفع في علومنا الإنسانية والاجتماعية، وفي فلسفة علومنا الطبيعية.

ولقد كان هذا التقليد ــ لتخلفنا الموروث .. وللوافد غير العلمى، وغسير الملائم ــ السبب الأول في فقرنا الشديد في الإبداع.

وما كان لأمة أن تبدع في علوم حضارتها المتميزة، إلا إذا هي بلسورت منهاجها المتميز في المعرفة.. وإذا كانت اليقظة الإسلامية المعاصرة مدعوة إلى بلورة «بديلها الحضاري»، كدليل لنهضتها المنشودة، وذلك حتى لا تسقط في هاوية «التبعية» و«الاستلاب الحضاري».. أو تضل الطريق.. فإن المدخل إلى هذا الإنجاز هو «إسلامية المعرفة» حتى يأتى هذا «البديل إسلاميا» حقا.. فقضيتنا، إذن قضية «إسلامية المعرفة» — هي جزء من «مشروع حضاري بديل» وليسب مجرد قضية ثقافية خاصة بدوائر المثقفين والمفكرين..

إنها قضية أمة تريد أن تنهض، في مواجهة تحديات شرسة.. وقضية دين، أنعم الله علينا بأن هدانا إلى التدين به..

وقضية حضارة صاغ أسلافنا العظام علومها ومعارفها بهذا المنهاج..

ولن يصلح البديل الحصارى الإسلامى المعاصر، الذى نريد به مواجهة الخلل المعرفى الحديث، إلا بما صلح به البديل الحضارى الإسلامى الأول، الذى واجه به أسلافنا الخلل المعرفى القديم.

إنها قضية «قديمة – جديدة» .. تمثل واحدة من أبرز القسمات التى تميز ويتميز بها الإسلام.. الدين.. والحضارة.. على غيره من النحل والفلسفات والحضارات.

إن «إسلامية المعرفة» تعنى : «حضارة – مؤمنة» تقوم على «عقلانية . . متدينة» ، يبدعها «علماء – هم أكثر الناس خشية لله»..

● وإذا كانت « الوضعية الغربية » ، التي عزلت « المعرفة » عن «الدين.. والوحي.. ونبأ السماء» .. بل وجعلت « الدين: وضعا بشريا»!.. إذا كانت هذه « الوضعية » قد أثمرت — وأثمرها — نموذج فيلسوفها «أوجست كونت».. ذلك الذي قطع المحاضرات التي بدأ إلقاءها سنة ١٨٢٦م (الفلسفة الوضعية) — وهي التي كونت «مؤلف الرئيسي» — قطعها بسبب إصابته بمرض عقلي!.. أعقبه محاولته الانتحار غرقا في نهر السين سنة ١٨٢٧م لفرط اليأس والقنوط..

والذى تعرف على «كارولين ماسان» – وهى بغى – فساعدته أثناء احترافها للبغاء!.. ثم تزوجها!.. فلما انفصل عنها هام حبا بامرأة متزوجة من رجل هارب من مطاردة البوليس – هو «كلوتيلد دى فو»، فكان حبه لها – كما يقول مؤرخو فكره – السبب فى اتخاذ كتاباته طابعا جديدا. فقال بخضوع العقل للقلب!.. ودعا إلى «تعاليم الدين الوضعى»(۱)..

إذا كان هذا هو حال «علم» و «علماء» المعرفة الحسية، و «الفصام النكد» بين «الأرض والسماء» .. بين «الكون والوحى» .. بين «الدنيا والآخرة» .. بين «المدنى والشرعى» ..

فإن لإسلامية المعرفة شأنا آخر، وثمرات مغايرة، ونماذج من
 العلماء مختلفين..

لقد كان عالمنا أبو عثمان عمرو بن عبيد (٨٠هـ – ١٤٤هـ/ ٢٩٩م... ٥٧٦١) فارسا من فرسان الثورة في سبيل الشورى والحرية والعدل.. وصرحا من صروح العقلانية الإسلامية التي واجهت مقولات الشرك

⁽١) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ٢٦٦، ٢٦٧.

والزيغ والإلحاد. وفى ذات الوقعت كان الرجعل الربانى الذى تضرب بتقواه الأمثال!.. ويشير الناس إليه، إذا رأوه. قائلين: «هذا خير الناس» ..

إنه «الثائر» الذي يقول . « إن ذكر غضب الرب يمنع من الغضب»

والفيلسوف العقلانى ، الذى يدعو ربه فيقول: «اللهم اغننى بالافتقار إليك! ولا تفقرنى بالاستغناء عنك! . . اللهم أعنى على الدنيا بالقناعة، وعلى الدين بالعصمة!»..

وهو القائد المطاع فى قومه وأنصاره . . والذى يحب إلى بيت الله الحرام، سيرا على قدميه _ من البصرة إلى مكة _ أربعين مرة، فى أربعين عاما. . يمشى على قدميه، وخلفه بعيره، يحمل عليه الفقراء والضعفاء ! (١).

هذه هي «بضاعتنا».. وتلك «بضاعة» الوضعيين ـ الماديين.

إنه نسق فكرى متكامل .. وبديل حضارى متميز لإعادة التوازن الذى أصابه الخلل بالانحراف «الحسسى» و«المادى» ذلك الذى أقام «الوضعية.. المادية» العرجاء!..

क्षेत्रेटिक्ष

⁽۱) انظر دراستنا عنه ، نکتاننا (مسلمون ٹینسوار) ص ۱۶۰ ــ ۱۷۵. طبعیة القاهرة سنة ۱۹۸۸م.

المصاور

- القرآن الكريم .
 - كتب السنة :

«صحیح البخاری » طبعة دار الشعب _ القاهرة «صحیح مسلم» طبعة القاهرة سنة ۱۹۵۵م «سنن الترمذی » طبعة القاهرة سنة ۱۹۳۷م «سنن النسائی» طبعة القاهرة سنة ۱۹۳۱م «سنن أبی داود » طبعة القاهرة سنة ۱۹۵۲م «سنن ابن ماجة » طبعة القاهرة سنة ۱۹۷۲م «سنن الدارمی » طبعة القاهرة سنة ۱۹۷۲م «سنن الدارمی » طبعه القاهرة سنة ۱۹۲۲م «مسند الإمام أحمد» طبعة القاهرة سنة ۱۹۲۲م

● الكتب المطبوعة:

آدم متز: (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريدة . طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م.

ابن جلجل: (طبقات الأطباء والحكماء) تحقيق: فـؤاد سيد، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م.

ابن القيم: (إعلام الموقعين) طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م، (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م.

ابن منظور: (لسان العرب) طبعة دار المعارف _ القاهرة.

البلخى ، والقاضى عبد الجبار، والحاكم الجشمى: (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) تحقيق فؤاد سيد . طبعة تونس سنة ١٩٧٢م.

التهانوى: (كشاف اصطلاحات الفنون) طبعة الهند سنة ١٨٩٢م الجرجانى (الشريف): (التعريفات) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م

جيوم: (الفلسفة وعلم الكلام) ترجمة جرجيس فتح الله طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ - ضمن كتاب (تراث الإسلام).

روبرت م. أغروس ، جورج ن. ستانسيو: (العلم في منظوره الجديد) ترجمة كمال خلايلي . طبعة الكويت سنة ١٩٨٩م.

حسين مؤنس (دكتور): (أطلس تاريخ الإسلام) طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧م

روزنتال (م) ، يودين (ب) : (الموسوعة الفلسفية) ترجمة : سمير كرم، طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م.

زكى نجيب محمود (دكتور) (إشراف): (الموسوعة الفلسفية المختصرة). طبهة القاهرة سنة ١٩٦٣م.

سانتيلانا: (القانون والمجتمع) ترجمة جرجيس فتح الله. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م ضمن كتاب (تراث الإسلام).

الطهطاوى (رفاعة رافع): (الأعمال الكاملة) ج٤- دراسة وتحقيق: د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٧م

عبد الوهاب الكيالى (دكتور) (إشراف): (موسوعة السياسة) طبعة بيروت سنة ١٩٨٣م.

مجمع اللغة العربية ـ القاهرة: (معجم ألفاظ القرآن الكريم) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩م، (المعجم الفلسفي) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩م

محمد أمزيان: (منهج البحث الإجتماعي بين الوضعية والمعيارية) ... طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي . واشنطون سنة ١٩٩٢م.

محمد عمارة (دكتور): (الطريق إلى اليقظة الإسلامية) طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م، (مسلمون ثوار) طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م

محمد فؤاد عبد الباقى: (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) طبعة دار الشعب . القاهرة

مراد وهبة (دكتور) ، يوسف مراد ، يوسف شلالة : (المعجم الفلسفي) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م

نلينو: (محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية) ترجمة : د. عبدالرحمن بدوى طبعة القاهرة ضمن كتاب التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥

هارى . و هازارد : (أطلس التاريخ الإسلامى) ترجمة إبراهيم زكى خورشيد طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م

وينسنك (أ. ى) ـ وآخرين: (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف) طبعة ليدن ١٩٣٦م - ١٩٦٩م

اليونسكو: (معجم العلوم الاجتماعية) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م

فلرس

الصفحة	الموضوع
•	تمهید
شعار جدید لمضمون قدیم ۱۹	لانفصل لالأول
التعريف والضبط للمصطلحات ٢٣	(لفصل الثاني
أمثلة وتطبيقات وتطبيقات	(لفصل (لثالث
النموذج القرآني لإسلامية المعرفة ،، ،، ،، ،، ،، ۳٥	الغصل الدابع
وبعد الفتوحات الإسلامية ١٠٠٠ ١٠٠٠	(لفصل (لخامس
والبديل للوضعية الغربية الحديثة ١٠ ١٠٠ ٩٣	للفصل للساوس
وقسمة في مشروعنا الحضاري البديل ١٠٣٠٠	الفصل السابع
119	المصادر





إشترك في سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الإشتراك السنوى:

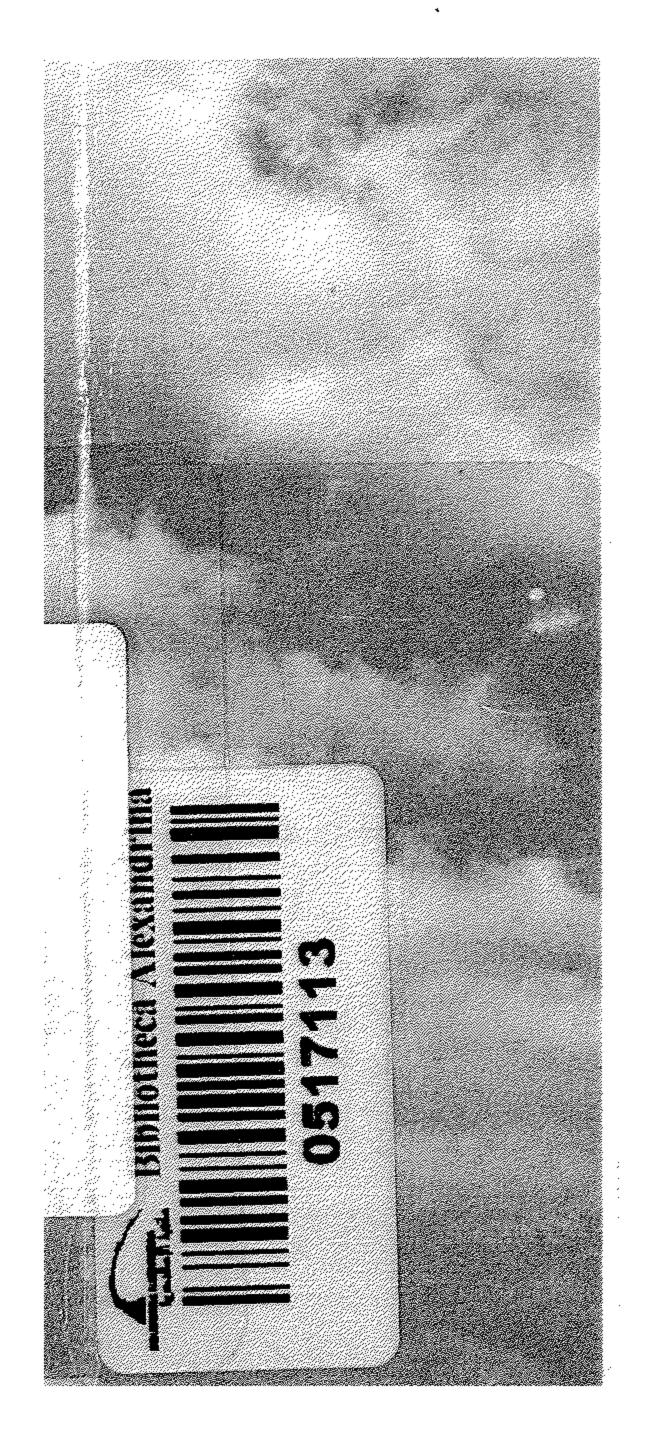
- داخل جمهورية مصر العربية ٣٦ جنيهاً
- الدول العربية واتحاد البريد العربي ٥٠ دولاراً أمريكيًّا
 - الدول الأجنبية ٥٧ دولاراً أمريكيًّا

تسدد قيمة الإشتراكات مقدماً نقداً أو بشيكات بإدارة الإشتراكات بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء – القاهرة.

أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة.

رقم الإيداع 1999/17.02-5834-2 الترقيم اللولى ISBN 977-02-5834-2

۱/۹۹/۳٦ طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



هل هناك علاقة بين الإسلام والمعارف الإنسانية ؟ إن الكثيرين لا يجادلون في وجود فلسفة مادية، وعلم إجتماعي ماركسي، وسياسات ليبرالية- أي وجود عبلاقيات للمبرج عيبات الوضعية بالمعارف الإنسانية-لكنهم يرفضون هذه العلاقات إذا كانت المرجعية هي الإسلام!! وهناك من يخسشي أن تعني إسلامية المعرفة وجود كيمياء مسلمة وأخسرى كسافسرة إ وهناك من يتوهم أن إسلامية المعرفة هي تزيين العلوم الغربية بآيات من القرآن الكريم (وللحوار مع كل هؤلاء ، وصولاً إلى كلمة سـواء، يصـدرهذا الكتـاب.



E-V-11/-1

